مهرجان القراءة للجميع



سيد خميس

القصص الدينى
بين التراث والتاريخ





الهيئة المصرية
العامة للكتاب

القصص الدينى
بين التراث والتاريخ

القصص الدينى
بين التراث والتاريخ

سـيد خميـس

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

القصص الدينى بين التراث والتاريخ

سـيد خميـس

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزار ة الشــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

طبعة خاصة من ميريت للنشر والمعلومات لمكتبة الأسـرة ٢٠٠١

(١)

العودة للتراث.. لماذا؟

عرف العرب منذ القدم مفهوم "التراث" بجانبيه، أو وجهيه: المادى والروحي. واستخدموا كلمة الإرث والميراث فيما يتصل بالجانب الثقافى والروحي.

وإن كان القرآن الكريم قد استخدم كلمة التراث فى الإشارة إلى ما تركه السلف للخلف من موروث مادى أو معنوى.. مثل قوله تعالى: "وتأكلون التراث أكلا لمّا" ومثل قوله تعالى على لسان النبى زكريا: "فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من أل يعقوب" ويفسر لسان العرب الآية بأن النبى زكريا أراد أن يهب له الله من يرثه، ويرث النبوة من أل يعقوب. ويقول النبى عليه الصلاة والسلام: "نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة". ويروى أن أبا هريرة قال لبعض الصحابة: انتم هنا وميراث محمد يوزع فى المسجد، ولم يكن فى المسجد إلا جماعة تقرأ القرآن وتذكر الله، فكأنه أراد من هؤلاء الصحابة المشاركة فى الميراث الذى أوحى إلى النبى. ويستخدم الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم كلمة التراث بدلالتها المعنوية فى معلقته الشهيرة، مشيرا إلى وراثة المجد والمفاخر والمناقب العظيمة التى يعتز بها العرب، يقول:

ورثنا مجد علقمة بن سيف   أباح لنا حصون المجد دينا
ورثت مهلهلا والخير منه   زهير نعم ذخر الذاخيرينا

وعتابا وكــلثوما جمــيعا　　بهم نلنا تراث الأكــرمينا

ويرى الدكتور أكرم العمرى فى كتابه "التراث والمعاصرة" أن التراث الإسلامى هو كل ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة وثقافة وقيم وآداب وفنون وصناعات، وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية، بما فيها الوحى الإلهى (القرآن والسنة) الذى ورثناه عن أسلافنا.. ولكنه يميز التعامل مع الوحى الإلهى عن التعامل مع باقى مفردات التراث الأخرى، فى عدم قبول الوحى الإلهى للانتقاء أو الاختيار، أو التطويع للواقع، وطرائق التفكير، لتوظيفه فى تحقيق مصالح عامة أو خاصة، فالوحى الإلهى إطار يحكم الحياة، ولكنه يدعها تتطور داخله، فإذا انفلتت خارجه فقد وقع انحراف لابد من تقويمه ( ) وأما المنجزات البشرية الحضارية والثقافية فإنها قابلة للانتخاب والتوظيف، وفق الرؤية المعاصرة وحسب الحالة والمصلحة".

والتراث العربى أوسع زمنيا من التراث الإسلامى، فهو يضرب بجذوره إلى تراث الحضارات القديمة فى منطقة الشرق الأدنى، وإلى تراث العرب قبل الإسلام بقرون طويلة. ولكن التراث الإسلامى أعمق وأغنى وأوسع جغرافيا من التراث العربى، فهو يضم إلى جانب تراث العرب تراث الشعوب الأخرى التى دخلت الإسلام كالفرس والهنود والمغول والمصريين والعراقيين وشعوب شمال أفريقيا إلخ　ويقدم محقق التراث الكبير العلامة عبد السلام هارون فى كتابه الذى يحمل هذا الاسم: مفهوما مستنيرا للتراث العربى، يجعله رديفا

للتراث الإنسانى، فهو "كل ما كتب باللغة العربية، وانتزع من روحها وتيارها قدرا بصرف النظر عن جنس كاتبه، أو دينه، أو مذهبه".

وقد شغل التراث العربى الإسلامى مساحة واسعة من التاريخ الإنسانى، متفاعلا معه أخذا وعطاء خلال قرون الازدهار الحضارى العربى الخمسة، ومازالت هذه التأثيرات تطل علينا عبر الإبداع الأدبى والفكرى حتى الآن.. ويمتد التراث العربى.. مثل غيره من تراث الشعوب الأخرى من الأسطورة إلى الحكاية والسيرة وباقى مكونات التراث الشعبى، ومن التراث الشعبى إلى التراث الخاص والمدون، وفى مقدمته المادة التاريخية والثقافية.

والعلاقة بين الدين والتاريخ والتراث علاقة قديمة متجددة حسب مقتضيات تطور المكان والزمان. ففى العصور القديمة كان تاريخ الأنبياء والرسل هو الوجه الآخر للتاريخ الإنسانى، بينما تاريخ الملوك والحكام هو وجهه المادى، أو تاريخ العمران الاجتماعى حسب تعبير العلامة ابن خلدون، وعندما انفصل التاريخ كعلم عن الدين والتراث عاد ثانية للاهتمام بالدين والتراث من خلال مناهجه الحديثة، فى دراسة تاريخ الأديان، والتاريخ الثقافى للبشر، بينما اتجهت بعض العلوم الإنسانية التى نشأت وتطورت فى القرنين الماضيين، كالانثروبولوجيا، والفولكلور، واللسانيات، والنقد الأدبى، لقراءة التراث الإنسانى قراءة جديدة من خلال مناهجها، لتغنى معرفة الإنسان بذاته، وبتاريخه الوجدانى، وبمحيطه

الاجتماعى، وبجماعته الإنسانية. وانفرد الأدب، وخاصة فى العصور الحديثة، بالنظر إلى التراث الدينى والأدبى كمصدرين غنيين للإبداع الفنى. فكأن الحياة المعاصرة، وما يكتنفها من عقبات مادية وعذابات روحية، تعيد للإنسان صلته بالدين يستمد منه طاقة لمواجهة تحديات الواقع والعصر، التى لا تأبه كثيرا بمصائر الجماعات المستضعفة، والإنسان العادى، كما أعادت صلة هذا الإنسان بتراثه فى مواجهة عوامل اقتلاعه من هويته، ليس لمجرد الاحتماء السلبى بهذا التراث كحل هروبى من احباطات الواقع، ولكن للتفتيش فى هذا التراث الغنى، عن حلول خاصة به وبأمته، منطلقا من إيمان حقيقى بأنه يملك تراثا لو نفض عنه تراكمات عصور التدهور والتحجر والجمود، لوجد فيه كنوزا عظيمة قادرة على إمداده بإجابات مبتكرة على أسئلة الواقع والعصر.

■ ■ ■

(٢)

القصص الدينى والموروث التاريخى

كان الكثير من القصص الديني معروفا عند العرب قبل الإسلام، فقد كان هذا القصص أحد مكونات التاريخ الشفاهى العربى، وكانت قصص عاد وثمود وفرعون تنتقل بينهم بالتواتر كما يقول الفخر الرازى، كما كان الشعر، وهو أصح علم لدى العرب القدامى، كما وصفه عمر بن الخطاب. يحمل الكثير من الإشارات التاريخية والقصصية، وقد انتقل هذا القصص الدينى السابق. على الإسلام إلى العرب، طريق نصارى الشام والحيرة ويهود اليمن ونجران والمدينة، كما انتقل عبر بعض المثقفين من أبنائهم الذين عرفوا الكتاب، وبعض اللغات المجاورة كالعبرية والفارسية، والذين كانت نفوسهم تضيق بالعقائد الوثنية.

ولكن هذا القصص الدينى لم يزدهر وينمو وينضج إلا فى ظلال القرآن الكريم، رغم أن القرآن ليس كتاب قصص، وان شغلت مساحة القصص الدينى فيه ما يتجاوز ربع المصحف بقليل، وذلك بالمعنى الواسع لمفهوم القصص، مما يؤكد أن القرآن استخدم القص كوسيلة من وسائل إبلاغ الدعوة، أو بعبارة أخرى قام بتوظيف القص توظيفا دينيا يتفق وغاياته السامية، شأنه فى ذلك شأن سائر الكتب السماوية المقدسة، فامتلأ بالموروث القصصى الذائع عند العرب، بشروطه

الموضوعية والجمالية، على شكل وحدات سردية جزئية موزعة على عدة سور من سور القرآن الكريم، باستثناء قصة يوسف، التى جاءت بمبناها الحكائى كاملا فى سورة يوسف [د. محمد رجب النجار التراث القصصى فى الأدب العربى].

ويشمل القصص الدينى الذى أشار إليه القرآن الكريم أربعة أنواع من القصص: قصص الأنبياء، وتبدأ بقصة أبى البشر آدم وأمهم حواء وخروجهما من الجنة، ثم أبى البشر الثانى نوح، وقصة الطوفان العظيم، ثم قصص النبيين العربيين، هود وصالح مع قومهما، ثم قصة أبى الأنبياء إبراهيم مع النمرود وقصة أبى العرب إسماعيل وفدائه، وحفر زمزم، وبناء الكعبة، وقصة لوط مع قومه ويعقوب مع أبنائه، وقصة يوسف مع أخوته وعلاقته بامرأة العزيز وسجنه، والنبى شعيب ثم قصة موسى ومعجزة ميلاده، وخروجه بقومه من مصر، ثم دعوته، وصراعه مع فرعون، والتيه اليهودى، وقصة البقرة، وقصة فتنة داود مع أصحاب السبت، وسليمان وبلقيس، وأيوب وبلائه، ويونس والحوت، وزكريا ويحيى، ثم مريم وعيسى والمعجزات العيسوية.

ويلى قصص الأنبياء فى القرآن الكريم، القصص المتعلقة بالشعوب السابقة على الإسلام والتى ترد للعبرة التاريخية المستهدفة منها، مثل: قصة أهل الكهف، قصة ذى القرنين، قصة يأجوج ومأجوج، قصة عزير وأصحاب الجنة، قصة قارون وكنوزه، قصة قابيل وهابيل، وقصص سد مأرب،

وسيل العرم، وأصحاب الرس، وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل إلى غير ذلك مما يرتبط أشد الارتباط بالثواب والعقاب السماويين، والجنة والنار، والموت والبعث، ويرتبط بهذا المجال التاريخى، الوقائع والأحداث التى حدثت للرسول صلى الله عليه وسلم نفسه مع بداية اضطهاد قريش له وتكذيب دعوته وحصاره، وتحديات اليهود له، وقصص المنافقين معه، ومرورا بقصة الإسراء والمعراج، وقصة الهجرة النبوية وما ارتبط بها من معجزات، وقصة الإفك، والحروب التى فرضت على النبى أو الغزوات التى قام بها، وانتهاء بفتح مكة وتمام النصر، وتعريجا على الحديث عن زوجات النبى، خاصة زينب بنت جحش، وغير ذلك من مواقف وأحداث، وما يرتبط بهذا كله من لمحات رسولية، ومواقف إنسانية، ومعجزات إلهية، وكثير منها يشكل معالم فاصلة فى تاريخ البشرية.

والغالب على القصص الدينى القرآنى، هو قصص الأنبياء وتاريخ نضالهم مع قوى الإنكار والشر، وليس الهدف من هذه القصص هو السرد التاريخى، ولكن الهدف هو التأمل والعظة والمغزى الدينى، لذلك جاءت صياغة هذا الموروث التاريخى فى القرآن الكريم صياغة قصصية، فى زمن لم يكن القصص فيه قد انفصل عن التاريخ، وكذلك جاء السرد بلاغيا فنيا.

والنوع الثالث من القصص القرآنى، هو القصص الغيبى، القصص المتعلق بعالم الجن، وبعالم الملائكة، وبعالم الشياطين والسحرة، لذلك استوعبت كتب التفسير عند تعرضها لهذا **النوع من القصص الموروث العربى القديم من الحكايات**

والأساطير، كما استوعبت الموروث السامى، والذى عرف بـ"الإسرائيليات".

وهناك نوع رابع من القصص القرآنى، هو الذى يسميه الدكتور النجار بالقصص الرمزى والتمثيلى، وهو القصص المتعلق بعالم الحيوان، أو الذى يروى على لسان الحيوان، كقصة الغراب الذى بعثه الله لابن آدم لكى يعلمه كيف يوارى سوأة أخيه، وقصة الطير التى ذبحها إبراهيم الخليل ووزع أجزاءها على قمم الجبال ثم استدعاها فجاءت تسعى، وقصة بقرة بنى إسرائيل التى أمر موسى بذبحها لكشف جريمة القتل، وقصة الذئب الذى اتهم زورا بأكل يوسف، وهدهد سليمان، ودابة الأرض التى كشفت لنا أن الجن لا يعلم الغيب، وحمار عزير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه.. إلخ.

وثمة سور قرآنية تحمل أسماء حيوانات مثل: النحل، النمل، البقرة، العنكبوت، الفيل، ورغم وفرة المادة القصصية فى القرآن الكريم، إلا أنها وردت كما اسلفنا كإشارات مجملة، أو لمحات سردية.. ولم تتحول إلى قصص دينى كامل إلا على يد المفسرين ورواة الأخبار والمؤرخين القدامى، لتصبح قصصا دينيا بشريا منفصلا عن القصص القرآنى وإن استلهمه فى البداية ليبنى عليه إبداعه القصصى.

■ ■ ■

العرب وديانات ما قبل الإسلام

كانت الكعبة هى أقدس ما فى بلاد العرب قبل الإسلام، وكان بعض العرب قد عرف الديانتين الكبريين: اليهودية والمسيحية، التى كانوا يسمون أتباعها بـ "أهل الكتاب".. وكانت قريش تعرف "الله" الذى يعبده اليهود والنصارى: "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله" ولكنهم استمروا فى عبادة آلهة أخرى، مثلما كان العبرانيون القدماء يفعلون.. كانوا يتوجهون إلى أصنامهم الكبرى فى فترات الرخاء والازدهار، حتى إذا ما حلت بهم أزمة خانقة توجهوا بفطرتهم إلى الله القادر وحده على إزاحة الأخطار عنهم، ويضرب القرآن الكريم مثلا بمن كانوا فى الفلك وخشوا الغرق، فدعوا الله حتى إذا نجاهم نسوه وتوجهوا إلى آلهتهم.

ولكن بعض مثقفى العرب قبل الإسلام مباشرة كان بهم رغبة أكيدة فى تجاوز ذلك الموقف المزدوج فى عبادة الله الذى يعبده النصارى واليهود من العرب الجنوبيين، والعرب الملحقين بالقوتين المهيمنتين الكبريين فى ذلك العصر ونعنى الفرس والرومان، وبين عبادتهم آلهتهم القديمة: اللات، والعزى، ومناه، وهبل.. وكان بعض النصارى واليهود يقومون بالحج إلى البيت الحرام مع باقى قومهم من الوثنيين.. لقد أراد هذا البعض المستنير من العرب القدامى دينا خاصا بهم، لا يرتبط باليهودية التى ترعاها فارس، ولا بالمسيحية التي ترعاها روما، والتى تسيطر على مصائر الشعوب الأخرى عن طريقهما.. ويخبرنا المؤرخ الفلسطينى المسيحى "سوزومينوس" الذى عاش فى القرن الخامس الميلادى، أن بعض العرب كانوا يحاولون التعبد حسب دين الخليل إبراهيم الذى اكتشفوه "وان شئنا الدقة العلمية، فإن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا مسيحيا، إذ كان يعيش فى وقت سابق على التوراة التى أتى بها موسى إلى بنى إسرائيل".

كما تورد سيرة ابن هشام قصة الرجال القرشيين الأربعة قبل الإسلام الذين خرجوا يبحثون عن دين صحيح لا يقوم على عبادة الأصنام، وعقدوا فيما بينهم حلفا سريا، واتهموا باقى قريش بأنهم افسدوا دين أبيهم إبراهيم، وبأن الحجر الذى يطوفون حوله، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، وقالوا: "فلتبحثوا لكم عن دين، فليس لكم والله من دين تدينون به، ومن ثم جعلوا يضربون فى الأرض سعيا وراء الحنيفية

دين إبراهيم عليه السلام".

وكان الحنفاء الثلاثة هم: عبيد الله بن جحش ابن عم النبى، وقد اعتنق الإسلام ثم تحول إلى النصرانية، وكان الثانى ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوجة النبى الأولى، والثالث هو عثمان بن الحويرث، وكان من الشخصيات البارزة فى مكة فترة شباب النبى وقد اعتنق النصرانية، وحاول إقناع أهل مكة بأن يجعلوه ملكا عليهم، ووعدهم بتحقيق شروط تجارية أفضل لهم مع البيزنطيين، الذين كانوا يطمحون فى تحويل مكة لأهميتها التجارية إلى دويلة تابعة لهم، ورفض المكيون العرض فقد كانوا يكرهون أن يتخذوا ملكا عليهم أما رابع هذه المجموعة فهو زيد بن عمرو، الذى لم يكتف بالخروج على عبادة آلهة قريش، بل راح ينتقد هذه الآلهة علنا، وكان أخوه غير الشقيق الخطاب بن نفيل (والد أمير المؤمنين عمر) من المخلصين لعبادة الأوثان، ومن أشد حراس التراث القديم قوة وحسما، وكان ابنه عمر يشاركه هذا الموقف، فهم يرون أن عبادة الكعبة عاملا مهما فى وحدة قريش، لذلك ساء الخطاب ما يقوله ويفعله أخوه زيد، وأغضبه ارتداده عن دين آبائه، فطرده من مكة، "وقيل أنه شكل فريقا من شباب المتحمسين لعبادة الأوثان، وجعلهم رقباء على التلال المحيطة بمكة حيث كان زيد يختفى، ليمنعوه من دخول الكعبة، وهكذا ترك زيد الحجاز ورحل إلى البلاد المتحضرة سعيا وراء الدين الصحيح، وبلغ الموصل فى العراق، ثم ارتحل إلى سوريا، وهو يسأل كل راهب أو حاخام يصادفه عن الدين النقى الذى جاء به إبراهيم وأخيرا قابل راهبا أخبره

أن الوقت قد حان لظهور نبى فى مكة يبشر بالدين الذى يبحث عنه. وهكذا عاد زيد أدراجه، ولكنه تعرض لحادث اعتداء عند الحدود الجنوبية لسوريا، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يقدر له أن يقابل محمدا.

ولكن ابنه سعيدا أصبح من أخلص صحابة النبى، وكان زيد قبل أن يرغمه أخوه على ترك مكة، يقف إلى جوار الكعبة ثم يصيح فى قريش أثناء طوافها حولها. "يا معشر قريش، والذى نفس زيد بيده، ليس فيكم من يتبع دين إبراهيم سواى" ثم يضيف داعيا ربه: "إلهى ! لو أننى أعرف كيف تريدنى أن أعبدك لعبدتك العبادة التى ترضاها، ولكنى أجهلها".

لم يعد النظام القبلى والوثنية القديمة المرتبطان بحياة الترحل السابقة صالحين لحياة الاستقرار وشبه التحضر اللذين عرفتهما مكة، منذ أن استقرت قريش فيها فى أواخر القرن الخامس الميلادى، كان بعض العرب قد بدأوا التعامل التجارى مع الدول المتحضرة المجاورة، ولعل قصة النضر بن الحارث ابن خالة النبى، والذى كاد للنبى وللمسلمين الأوائل كيدا شديدا، جعله يستحق القتل، بعد أسره فى معركة بدر، لعل هذه القصة تكشف عن هذا اللون من الثقافة الذى عرفه بعض وجوه مكة قبل الإسلام، فقد كان النضر بقصصه وما يحفظه من أشعار الأمم الأخرى، وما يعرفه من موسيقاهم يسلب ألباب أهل مكة.. وكان يعد نفسه نظيرا وندا للنبى عليه الصلاة والسلام، كان يقول: "إذا كان محمد يحدثكم بأحاديث عاد وثمود، فأنا أحدثكم بأحاديث رستم واسفنديار، وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فهلموا أحدثكم أحسن من حديثه"

وهو الذى نزلت فيه الآيات القرآنية الكريمة "ومن الناس من يشترى لهو الحديث، ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين.. وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا، كأن لم يسمعها، كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم".

■ ■ ■

أنبياء العرب القدامى

أنكر يهود المدينة نبوة هود فى قوم عاد، ونبوة صالح فى قوم ثمود، وعاد وثمود من القبائل العربية القديمة، لأن التوراة لم تورد اسمي هود وصالح ولا قومهما، وقد صار جدل بشأنهما بين الرسول عليه السلام وبين اليهود.. ويذكر ابن الأثير فى تاريخه أن شهرة النبيين: هود وصالح عند العرب قبل الإسلام كشهرة إبراهيم الخليل عليه السلام، وإن إنكار اليهود لهما ولقومهما ليس بأعجب من إنكارهم نبوة إبراهيم الخليل ونبوة المسيح عليهما السلام. ويفسر ابن خلدون عدم ذكر عاد وثمود فى التوراة، بأن الأمم التى ورد ذكرها فى التوراة هى الأمم التى عاشت فى الفترة ما بين آدم وموسى عليهما السلام.

وتورد أخبار العرب القديمة اسم نبى عربى لم يرد ذكره فى القرآن، واختلفت بشأنه الآراء، وهو "خالد بن سنان العبسى"

الذى يقال أنه عاش فى الفترة الزمنية الفاصلة بين فتح الإسكندر لإيران وبين قيام الدولة الساسانية، بينما تنسبه رواية أخرى إلى العصر السابق للعصر النبوى مباشرة، ويروى أن معجزته ارتبطت بظهور نار بأرض العرب افتتن بها الناس، وكادوا يعبدونها كالمجوس، فأخذ خالد عصاه، ودخل النار حتى توسطها، ففرقها بعصاه، وهو يتلو سجعا شبيها يسجع الكهان: "بدا بدا، كل هدى مؤدى، لأدخلها وهى تلظى، ولأخرجن منها وثيابى تندى" وهى معجزة تذكر بمعجزة إبراهيم الخليل الذى جعل الله النار من حوله بردا وسلاما.. ويورد ابن الأثير فى تاريخه أن النبى صلى الله عليه وسلم وصف خالد بن سنان هذا بأنه "نبى ضيعه قومه" وإن ابنة خالد أدركت النبى فأمنت به، ويشير المؤرخون القدامى إلى نبى آخر من العرب قبل الإسلام، هو "حنظلة بن صفوان" الذى أرسله الله لأصحاب الرس "البئر" بعد خالد بن سنان بمائة سنة، ويقول عنه ابن كثير أنه كان قبل موسى، كما يشير إلى العثور على قبره قرب مدينة تستر عند فتحها، ويعلق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على قصة نبوة خالد بن سنان العبسى ومعجزته بأنها تعبير عن كراهية العرب للمجوسية ونيران الفرس، مما يمكن اعتباره تعبيرا عن الروح القومية فى مواجهة التهديد الفارسى "ولا بأس فى أن يكون خالد بن سنان هذا من كهان العرب، أن لم يكن من متنبئيهم قبيل العصر النبوى، وذلك أن الرواية القصصية تضيف إلى ما سبق، أنه عندما حضرته الوفاة طلب من أهله أن ينبشوا قبره،

إذا ما ضرب القبر بعير أبتر بحافره، حتى يخبرهم بما هو كائن، ولكن قومه لم يفعلوا ذلك خوفا من أن تسبهم العرب".

وقد اهتم المؤرخون العرب القدامى بأساطير وأخبار الأمم المجاورة لهم، والتى عايشوها وعرفوا ثقافاتها بعد دخولها فى إطار الدولة العربية الإسلامية، وتعكس رؤية هؤلاء المؤرخين القدامى، كابن الأثير وابن خلدون وابن قتيبة، وإخوان الصفا فى رسائلهم، واليعقوبى، تعكس رؤية هؤلاء لتراث الأمم الأخرى، سماحة فكرية عالية ورغبة فى المعرفة والوصول إلى الحقيقة دون تعصب أو انغلاق.. فقد اهتم هؤلاء المؤرخون بما يقوله الفرس عن أنبيائهم ومعتقداتهم، كما اهتموا بحكماء الروم (فلاسفة اليونان) مثل هرمس "المثلث بالنعمة" الذى يسمى فى التراث الإسلامى بالنبى إدريس. أما ما يقابل النبى إدريس عند الفرس فهو "بيوراسب" الذى ظهر على عهد الملك "طمهورث بن يونجهان" بمعنى "خير أهل الأرض" وتتحدث الأسطورة عن علاقة النبى بالملك، والتى تشبه علاقة أنبياء بنى إسرائيل بملوكهم كمرشدين وناصحين، و"بيوراسب" هذا هو نبى الصابئة الذى تنسب إليه الأسطورة أنه كان يستخدم السحر الذى تعلمه من كلام آدم عليه السلام، وقد استفاد الملك من هذا السحر فى السيطرة على إبليس، فكان يمتطيه ويطوف عليه أقاصى الأرض، كما ينسب إلى أخى الملك المسمى بـــ "جمشيد" بمعنى شعاع القمر، وقد لقب به لجماله، أنه كان يستعبد الإنس والجن ويذل الشياطين ويسخرهم فى أعمال البناء والتشييد. فهو من هذا الوجه شبيه

بسليمان الحكيم.. وعن طريق مذهب الصابئة هذا ظهرت عبادة الأصنام "لأن أصل مذهبهم" كان عبادة الملائكة لتقربهم إلى الله زلفى "فإنهم اعترفوا بصانع العالم، وأنه حكيم قادر مقدس، إلا أنهم قالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى معرفة جلاله، وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة إليه وهم الروحانيون (الملائكة) وحيث لم يعاينوا الروحانيين تقربوا إليهم بالهياكل، وهى الكواكب السبعة السيارة، ولما كانت الكواكب تغيب نهارا، ذهبت فئة من الصابئين إلى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها إلى الهياكل، والهياكل إلى الروحانيين، والروحانيين إلى صانع العالم، فهذا كان أصل وضع الأصنام أولا" (الكامل لابن الأثير نقلا عن د. سعد زغلول عبد الحميد) ولعل ذلك سر سماحة نظرة الإسلام إلى الصابئة.

ويربط المؤرخون القدامى بين جحود البشر وكفرهم، وانصرافهم إلى الفروع دون الأصول ونسيانهم التوحيد، وبين رسالة النبى نوح كأول نبى بعث بالإنذار والدعوة للتوحيد، ومناشدة قومه فى العودة إلى الحق، والامتثال لأوامر الله.. لكنه كان مكتوبا على الإنسانية الخاطئة أن تنتهى، فلا يبقى منها إلا أهل التوبة والتوحيد "هكذا كان الطوفان فاصلا بين بنى آدم (أبى البشرية الأول) وبنى نوح (أبى الخليقة الثانى) والى أبناء نوح الثلاثة وهم: سام وحام ويافث، الذين نجوا معه فى السفينة، مازال علماء النسب يقسمون البشر، إلى: ساميين وحاميين ويافثيين (أى هند وأوروبيين).. وكأنه لم ينج من

الطوفان إلا أسرة نوح الصغيرة. وبناء على ذلك تبدأ بعد الطوفان دورة جديدة للإنسانية، كأنها بداية للعصور التاريخية.

ولقد نظر الفرس والهند إلى حادثة الفيضان الكبير على أنها كارثة طبيعية محلية، ربما حلت بأرض بابل فقط، وإلا فلو كانت عامة شاملة لكافة الأرض المعمورة لعرف بها أهل بلادهم، ولسجلها مؤرخوهم (الطبرى وابن الأثير فى المصدر السابق د. سعد زغلول عبد الحميد).

■ ■ ■

وقد كانت نبوة النبى هود فى قبائل عاد التى كان موطنها اليمن وحضرموت، ونبوة النبى صالح فى قبائل ثمود التى كانت تعيش في شمال الحجاز، نبوتين عربيتين خالصتين، جاءت قصتهما خارج سياق نبوات أسفار العهد القديم (التوراة). وتعكس قصة النبيين العربيين "طبيعة الحياة العربية على مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية، كما أنها تربط بين معتقدات العرب المحلية في صحراواتهم وبواديهم، وبين تبجيلهم للحرم المكى الذى يمثل عامل الربط والتوحيد بين كل ديانات العرب قديما. وهى فى النهاية تجعل من الكوارث الطبيعية عقابا حتميا من الله ينزله بالعصاة والفجار من الكافرين".

يخبرنا القرآن الكريم أن قبائل عاد، عصوا نبيهم هود، واستمروا في ضلالهم وعبادتهم لأصنامهم، وفى عتوهم فى

الأرض "وأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟" ويذكر عبيد بن شريه فى كتاب "الملوك وأخبار الماضين" أن أصنام قبائل عاد هى: صداء، ونعاء، وصمود، وانهم بعد عصيانهم لنبيهم هود ورفضهم لما دعاهم إليه من ترك الأصنام وعبادة الله أنزل عليهم القحط الذى استمر ثلاث سنوات، سموا السنة الأولى بـــ: حجرة، والثانية: كحلا، والثالثة: كلحا، وأنه عندما ذهب وفد منهم إلى مكة يستسقى ويطلب المغفرة، نسوا ما جاءوا من أجله وانصرفوا إلى طعامهم وملذاتهم ولهوهم، فاستحقوا العذاب، إلا من آمن منهم، فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا عاتية، كأمثال الجبال لها لجم بأيدى رجال، كأن فى وجوههم شهب النار، حسب وصف نائحتهم "مهد" التى توصف بأنها أول نائحة عربية، والتى يقول عنها الشاعر:

رأت ما رأت "مهد" فقيل لها .. ماذا ترين؟

فقالت: أنظر العجبا!

أرى رياحا كأمثال الجبال لها.. لجم بأيدى رجل تشبه الشهـــبا

وعصفت جبال الريح بقبائل عاد المتجبرة طوال "سبع ليال وثمانية أيام حسوما" ولم تتركهم إلا وقد صاروا كأعجاز نخل خاوية.

وفى أحد أعياد قبائل ثمود يطلبون من نبيهم صالح أن يأتى لهم بمعجزة يعتبرون بها، ويحددون نوع المعجزة بما يتناسب مع عقليتهم البدوية، فهم يطلبون منه أن يستخرج لهم من

الصخر "ناقة حمراء شعراء وبراء مبهرجة، لها ضجيج وعجيج ورغاء شديد، تفور لبنا سائغا" ويخرج لهم النبى صالح الناقة حسب مواصفاتهم، ولكنهم يختلفون بشأنها، ثم يعقرونها ويقتسمون لحمها، ويرمون صغيرها، فيدعو صالح عليهم، فينزل الله بهم العذاب استجابة لدعائه، وقد استمر عذابهم أربعة أيام "ففى اليوم الأول اصفرت وجوههم، ثم إنها احمرت فى اليوم الثانى قبل أن تسود فى اليوم الثالث، وأخيرا أتتهم الصاعقة فى اليوم الرابع فقضت عليهم" ويترك النبى صالح أرض قومه إلى الشام، ويقيم زمنا فى فلسطين ثم ينتقل منها إلى مكة، فيقيم فى البلد الحرام يعبد الله إلى أن يموت وهو فى الثامنة والخمسين من عمره، بعد أن استمرت دعوته فى قومه عشرين عاما.

"وبذلك ارتبطت دعوة هود وصالح بالعروبية من جهة، وبتقديس مكة من جهة أخرى، وذلك قبل أن يأتى إبراهيم الخليل (أبو الأنبياء) حوالى سنة (٢٠٠٠ قبل الميلاد) ليقيم قواعد البيت، ويدعو الناس إلى الحج، فيتم الربط بين الإبراهيمية الحنيفية وبين المحمدية الإسلامية. وهى بعد فكرة فى ضمير القدرة" ويمتد تراث النبوة بين العرب عن طريق النبى إسماعيل أبى العرب المستعربة من جهة وصهر العرب العاربة عن طرق زوجته الجرهمية من جهة ثانية، إضافة إلى أنه ابن لهاجر المصرية من جهة ثالثة: الأمر الذى يجعلهم أخوال العرب. وهى أمور يؤكد عليها التراث الإسلامى فى صياغته لرسالة التوحيد التى تربط بين الحنيفية الإبراهيمية

وبين المسيحية الوسيطة، وبين الدعوة المحمدية.. وقد اهتم المؤرخون المسلمون القدامى ببيان أوجه الشبه بين الدعوة الإبراهيمية والدعوة الإسلامية. فكلتاهما ضد عبادة الأصنام، وكلتاهما مرتبطة بفريضة الحج، "وتطلبت مناسك الحج أن يمتحن إبراهيم بعشر خصال، هى المعمول بها فى الإسلام، لتطهير البدن، خمسة منها فى الرأس، وخمسة فى الجسد، والخمسة التى فى الرأس هى: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، وفرق الشعر، والخمسة التى فى الجسد هى: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الأبط، وغسل أثر الغائط".

ويمتد التشابه بين الخليل إبراهيم ونبى الإسلام إلى نذر عبد المطلب لأبى النبى عبد الله للآلهة، مثلما نذر الخليل ابنه إسماعيل، ولذلك يسمى النبى بابن الذبيحين (عبد الله وإسماعيل). ويعتبر العلامة ابن خلدون الخليل إبراهيم أبا ثالثا للبشرية بعد آدم ونوح، باعتباره أبا للعرب جميعا، وحيث جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب إلى آخر الدهر.

ويبدو الفارق بين الخليل إبراهيم والنبى محمد عليهما السلام، والذى حرص القرآن على تأكيده، هو اعتماد نبوة إبراهيم على المعجزة الخارقة المتمثلة فى تحول النار من حوله إلى برد وسلام، إلى جانب اعتماد نبوته على الوحى الإلهى والإلهام الصادق، بينما اعتمدت النبوة المحمدية على الوحى الإلهى بالقرآن معجزته الكبرى، وإن كان التراث الشعبى الإسلامى قد أفاض فى إضافة العديد من المعجزات

والخوارق إلى السيرة النبوية كما ارتفع بعض المتصوفة بشخصية النبى صلى الله عليه وسلم إلى مستوى الظواهر الكونية، والعلل الأولى للموجودات، وأن اسمه موجود في كل شئ فى الجنة، من القصور إلى نحور الحور، إلى ورق أجام الجنة، ولولاه لما خلق الله سماء ولا أرضا، ولا طولا ولا عرضا، ولولاه ما كان لا ملك ولا فلك.. كلا ولا بان تحريم وتحليل.

■ ■ ■

عاد وثمود

فى الأسطورة والتاريخ

تمتزج الأسطورة بالتاريخ فيما يتصل بأقوام العرب البائدة، وفى مقدمتها قوما عاد وثمود اللذان وردت قصتهما فى القرآن الكريم، كما أشرنا سابقا، وكان ورودهما فى القرآن، كغيرهما من القصص، بهدف العظة والعبرة بأحوال الأمم السابقة، وليس بهدف التوثيق التاريخى، وقد شكك بعض المؤرخين فى حقيقة وجود الأقوام العربية البائدة: عاد، ثمود، طسم، جديس، أميم، جاسم، عبيل، عبد ضخم، والعمالقة، وجرهم الأولى. ونسبوا ما قيل عن هذه الأقوام من قصص إلى خيال الرواة والاخباريين، لكن الأبحاث الأثرية واللغوية الحديثة كشفت كثيرا من المعلومات والحقائق المتعلقة بتلك الأقوام، وإن ظلت الأساطير ممتزجة بتلك الحقائق، عن عاد وثمود وقصتهما مع النبيين هود وصالح، وقد كانت قصة عاد شائعة بين عرب ما

قبل الإسلام، الذين كانوا يعتقدون أنهم قوم موغلون فى القدم، لذلك كانوا يصفون ما يردن المبالغة فى وصفه بالقدم، بأنه: عادى. وفى لسان العرب: العادى هو الشئ القديم، أى أن الكلمة صفة وليست اسم علم. ويختلف الاخباريون القدامى، كعادتهم، فى تفسيز اسم "عاد" فهو عند البعض اسم لأبى القبيلة الذين يصلون نسبة لإرم بن سام بن نوح، ويعتمدون على ذلك فى تفسير الآية القرآنية "ألم تر كيف فعل ربّك بعاد إرم ذات العماد" ويقول إخباريون آخرون: أن عاد اسم لأم تلك القبيلة، أو اسم لبلدتهم، والعرب قد عرفوا كشعوب كثيرة الانتساب للأم فى مرحلة ما قبل المجتمع الطبقى.

ويرى بعض المستشرقين المعتمدين على التفسيرات التوراتية للتاريخ أن هذا الاسم المؤنث يشير إلى اسم "عادة" زوجة لامك حفيد سام بن نوح. أو أم يابال، الذى ورد اسمه فى سفر التكوين من العهد القديم، كوالد لرعاة المواشى سكان الخيام. ويحددون موطن قوم عاد فى الأرض الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب. أما الذين يرون أن بلدهم هو "إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد" فيختلفون أيضا فى تحديد موقعها: - فهى فى أبين بين عدن وحضرموت، أو هى دمشق، أو الإسكندرية، كما يرى السعودى فى كتابه "مروج الذهب" وارم هو من أسماء دمشق بالعبرانية. ويرى جورجى زيدان فى كتابه "العرب قبل الإسلام" أن اسم تلك القبيلة هو "عاد ارم" معتمدا بذلك على التوراة والكتابات اليونانية.

أما مساكن قوم عاد، والتى أشار إليها القرآن الكريم

بالإحقاف "وأذكر أخا عاد إذا أنذر قومه بالأحقاف وهي الرمال الممتدة بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر.
"وربما كان التحديد الجغرافي غير بعيد، فقد ذكر كثير من الباحثين المنقبين في الجزيرة العربية أن الربع الخالي يشتمل في طيات رماله على أثار مدينة أو حضارة بائدة، كانت عظيمة الازدهار، وأنهم وجدوا بعض الشواهد على ذلك ( )
ويقترن اسم عاد بثمود في كثير من الآيات القرآنية، وقد ذكر الجغرافي الإغريقي بطليموس قوما سماهم "بهؤلاء القوم، أنهم قوم عاد، بل ذلك هو الراجح، ويؤيده ما سبق أن ذكرنا من إقتران عاد وثمود في كثير من النصوص القرآنية، مما يدل على تجاورهما وتقاربهما. كما أن بطليموس ذكر موضعا يقال له "أرماد" الذي فسره العالمان "مودل ومورتس" بأنه هو "إرم" أو "إرم ذات العماد" وهو يقع على مسافة ٢٥ ميلا شرقي العقبة قرب الأردن.. وقد أظهرت الحفريات التي قام بها عالم الاثار هورسفيل عام ١٩٣٢ في موضع جبل "إرم" صحة هذا الرأي، إذ ورد في الكتابات النبطية في خرائب معبد اكتشف على جبل "رم" أن اسم هذا الموضع هو "إرم" الوارد ذكره في القرآن الكريم. ومن الطريف أن الاخباريين والرواة القدامى، قد وضعوا شعرا على لسان ابن هود الذي أسموه "قحطان" قاله بعد أن هلك قومه وهم على الكفر، يقول الشعر:

إنـــي رأيــت أبي هــــود يؤرقه

حزن دخيــل وبلبـــال وتســــهاد

لا يحزننك إن خصـــت بـداهية

عاد بن عوص فعـــاد بئس ما عادوا

عاد، عصوا ربـــهم واستكبـروا

وعتوا عما نهوا عنه لا سادو ولا قادوا

قاموا يردون عنهم مـــن سفاهتهم

ريحا بـــها أهلكوا أيـــان ما بادوا

والشعر واضح الوضع والانتحال، ولكن الرواة كانوا يضعون مثل هذا الشعر على لسان شخصيات التاريخ القديم، من باب التزيين الأدبى الذى يؤكد المعنى، غير ملتفتين إلى منطقة هذا الشعر الموضوع، إلى درجة أنهم وضعوا شعرا عربيا على لسان ادم أبى البشر يرثى به ابنه الذى قتله أخوه!

■ ■ ■

كان العرب قبل الإسلام مباشرة يعرفون عن ثمود أكثر مما يعرفون عن عاد، وقد نسب بعض علماء الأنساب قبيلة ثقيف التى كانت تعيش فى الطائف إلى ثمود، كما نسب آخرون قبائل الهلالية إليهم.. وقد ورد ذكر ثمود فى القران الكريم مقترنا بعاد، كما أشرنا من قبل، وكما جاء فى سورة العنكبوت "وعاد وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم" كما يأتى ذكر قوم ثمود بمفردهم "وثمود الذين جابوا الصخر بالواد" أى قطعوا صخر جبال وادى القرى واتخذوا فيه بيوتا. ويقول المؤرخ والجغرافى المسعودى أن مساكن ثمود كانت بين الشام

والحجاز إلى ساحل البحر الأحمر، وأن ديارهم كانت بفج الناقة، وهو مكان قريب من الحجر، وأن بقاياهم كانت موجودة فى طريق الحج بالقرب من وادى القرى.

وقد ورد ذكر ثمود فى المصادر الإغريقية وفى الحفريات الأشورية، كما حددت مساكنهم فى المنطقة الواقعة شمال غربى اليمن، وقد عثر فى اليمن على نقوش ثمودية مما يؤكد صلة الثموديين بجنوب الجزيرة، ووجدت نصوص ثمودية أيضا فى مناطق حائل بنحد وفى أرض تبوك وتيماء ومدائن صالح، والسلاسل الجبلية بين هذه المنطقة وبين الحجاز والطائف، وفى شبه جزيرة سيناء، وفى الصفا شرق دمشق، وفى مصر ( ) وقد أدرك قوم ثمود أيام المسيح، وعاشوا بعد الميلاد، وكانوا يقطنون تلك الأيام أعالى الحجاز فى دومة الجندل والحجر، وفى غربى واحة تيماء فى المنطقة المهمة التى يمر بها طريق اليمن الحجاز . الشام . مصر العراق. وقد تمكن (لانسكتر هاردنك) محافظ مديرية الآثار العتيقة بالمملكة الأردنية الهاشمية من تصوير ما يزيد على خمسمائة كتابة ثمودية أرسلها إلى المستشرق المعروف (ليتمان) يعود بعضها إلى ما قبل الميلاد، ويعود قسم منها إلى ما بعد الميلاد ( ) ومن المعروف عند العرب أن الثموديين كانوا أيضا من عبدة الأوثان، كفروا بالله وحادوا عن أمره، فأرسل الله إليهم النبى صالح يعطهم وينذرهم، ولكنهم لم يذعنوا لأمر الله على لسان نبيه صالح، فأرسل الله عليهم الصاعقة بظلمهم، فأصبحوا من ديارهم جاثمين. ويرى

المستشرق (براى) أن ثمودا أصيبوا بكارثة عظيمة هى عبارة عن ثوران براكين وهزات أرضية، لأن المناطق التى كانوا يسكنونها من مناطق الحرار: أى الأرض السوداء، كما أن عبارتى: رجفة، وصيحة، الوارد ذكرهما فى القرآن الكريم تؤيدان ذلك".

[دراسات فى العصر الجاهلى. تأليف أحمد أبو الفضل _ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية].

■ ■ ■

قريش والبيت الحرام

كانت الكعبة، أهم الأماكن المقدسة عند العرب قبل الإسلام، إذ كانت الرمز الأشمل لحياتهم الروحية، وقبل البعثة المحمدية مباشرة كانت قد خصصت للإله الوثنى (هبل)، الذى جلبه العرب من مملكة الأنباط التى كانت قائمة مكان الأردن حاليا. ولكن ارتباط العرب بالكعبة والمكانة الرفيعة التى كانت تحتلها فى وجدانهم تشير إلى أنه كان، فيما يبدو، البيت الذى بنى فى أول الأمر لله، وهو الرب الأعلى للعرب.. وكانت حول الكعبة منطقة دائرية كان الحجاج يقومون فيها بشعيرة الطواف، أى أن يطوفوا سبع مرات حول الكعبة فى اتجاه حركة الشمس، وكان حول الكعبة كذلك ٣٦٠ صنما، أو تماثيل للأرباب، وربما كانت رموزا طوطمية لشتى القبائل التى كانت تحج إلى البيت فى الشهر المحدد لذلك.. وكانت المنطقة المحيطة بمكة

(وهى نصف دائرة قطرها عشرون ميلا ومركزها الكعبة) أرضا حراما، أى أنها كانت حرما لا يسمح فيها بارتكاب أعمال العنف أو القتال.

وقد حفظ لنا كتاب "الأصنام" للكلبى، وكتاب "رسالة الغفران" لأبى العلاء المعرى بعض الأدعية الدينية التى كانت ترددها القبائل العربية فى الكعبة أمام آلهتها الخاصة قبل الإسلام، وكان لكل قبيلة "تهليلتها" الخاصة، التى تأخذ شكل النظم الشعرى البسيط والأقرب إلى الأشعار الفلكلورية. كما تشير سيرة عنترة إلى العديد من طقوس الجاهلية الدينية حول الكعبة وآلهتها الوثنية.. وترى الباحثة البريطانية كارين ارمسترونج فى كتابها "سيرة النبى محمد" أن البيت الحرام كان يتمتع بقداسة مشتركة بين أبناء الجنس السامى (شعوب منطقة الشرق الأدنى قديما) وأن الدين السومرى القديم هو الذى نبعت منه فكرة الدائرة، والأركان الأربعة، التى تمثل أركان الأرض الأربعة، والرموز المقامة حول الكعبة وعددها ٣٦٠، تشير إلى عدد أيام السنة السومرية المكونة من ٣٦٠ يوما، إلى جانب خمسة أيام مقدسة يقضيها الناس "خارج الزمن" للقيام بشعائر خاصة تربط ما بين الأرض والسماء. ومن المحتمل أن تكون شعيرة الحج تمثيلا لتلك الأيام الخمسة، فالحج يؤدى مرة واحدة فى العام، ويشارك فيه العرب من شتى أنحاء الجزيرة.. وشعائره تبدأ من الكعبة ثم بعد ذلك المزارات المقدسة خارجها، وفى نظر بعض العلماء أن تلك الشعائر المختلفة، قد يكون القصد منها تمثيل تعسف الشمس

المحتضرة (كان الحج فى البداية يتم فى موسم الخريف) استدرارا لأمطار الشتاء، إذ يندفع الحجاج جميعا إلى قاع وادى المزدلفة، حيث يسكن إله الرعد، ثم يسهرون طوال الليل على السهل المحيط بجبل عرفات، الذى كان يبعد عن مكة بنحو ستة عشر ميلا، ثم يرجمون بالحصباء الأعمدة الثلاثة المقدسة فى "منى" وأخيرا ينحرون ذبيحة يقدمونها أضحية أو قربانا. ولا يفهم أحد اليوم حقا ما كانت تلك الشعائر تعنيه آنذاك، والأرجح أن العرب أنفسهم كانوا قد نسوا، فى عصر النبى، الدلالة الأصلية لها، ولكنهم ظلوا على ارتباطهم الوثيق والعميق بالكعبة وغيرها من المزارات المقدسة فى بلاد العرب، ولم يتوقفوا بل استمروا فى أداء الشعائر الخاصة بها فى تفان وإخلاص.

كان موسم الحج يعنى بالنسبة للعربى، إلى جانب الالتزام الدينى، ضرورة نفسية وإبداعية فى الخروج عن الرتابة المضجرة، والكفاح المرير من أجل الحياة، والصراع الضارى الذى تحكمه التقاليد القبلية، ففى أيام الحج لا قتال ولا اعتداء، كما كان لأيام الحج جانبها الاقتصادى التجارى، وكانت مكة من أسواق العرب المهمة السنوية، وكان الحرم نفسه على الأرجح، يمثل العالم، أى الأرض بأركانها الأربعة المنبثقة من مركز معين، ويبدو أن الدائرة من النماذج الفطرية القديمة، التى نجدها فى جميع الثقافات تقريبا رمزا للخلود، وللعالم وللنفس. وهى، تمثل، مكانيا وزمانيا، كلا كاملا، ومن ثم فالسير فى محيط الدائرة أو الطواف حولها (وهو من

الممارسات الدينية المشتركة بين أديان كثيرة) يعنى أنك دائما ما ترجع إلى النقطة التى انطلقت منها، إنك تكتشف أن النهاية هى البداية (   ) ومعظم الأماكن المقدسة، فى شتى الثقافات التقليدية، يرى الناس أنها تقع فى مركز العالم، وأنها كانت أولى الأماكن التى خلقتها الآلهة. وكان الحاج يرى أنها قد اكتسبت بهاء البدايات وروائها وكان يحس أنه يقترب، بصورة ما، من مركز القوة فى الوجود.

لقد اشتهرت قريش بأنشطتها التجارية والدينية قبل الإسلام، كما اشتهرت بقوتها الأخلاقية وفضائلها التى كان أبرزها فضيلة "الحلم" وهى الفضيلة التى مكنتها من أن تصبح أعظم قوى فى بلاد العرب فى القرن السادس الميلادى، كما مكنتها من موقف الحياد فى الصراع الدائر بين بيزنطة وفارس (القوتان الأعظم آنذاك).. فهى لم تكن تريد لبلادها مصيرا كمصير اليمن التى أصبحت ولاية حبشية.. وقد أحيط انسحاب جيش أبرهة الحاكم الحبشى من مكة وفشله فى الاستيلاء عليها، فى الحادثة المعروفة بقصة (أصحاب الفيل) بتمجيد لقريش، وعلو من شانها، فأصبح العرب ينظرون إلى القرشيين، كما يقول ابن هشام فى السيرة النبوية على أنهم "أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مئونة عدوهم".

لقد أراد أبرهة أن يحول أنظار العرب إلى الجنوب بعد بنائه معبدا مسيحيا فخما فى صنعاء. ولما لم ينجح سلما، خرج بجيشه ليهدم الكعبة، وليحول القبائل العربية بتجارتها وشعائرها عنوة عن مكة. وأصاب الطاعون جيشه، وجثا الفيل

على ركبتيه خارج البقعة المقدسة ورفض الحركة، وهاجمت الطيور القادمة من ساحل البحر الأحباش بحصباء مسمومة، وحولتهم الطير الأبابيل، إلى ما يشبه العصف المأكول.

وكان ذلك العام هو العام الذى شهد ميلاد النور المحمدى فى مكة، ومن صلب قريش.

■ ■ ■

يرى جرجى زيدان فى كتابه "العرب قبل الإسلام" أن اسم مكة من أصل بابلى أشورى.. لأن الكلمة تعنى "البيت" فى البابلية، وهو اسم الكعبة عند العرب، وقد امتازت مكة على ما يحيط بها من البادية ببيوتها الحجرية، وقد أشار الجغرافى اليونانى بطليموس إليها باسم (ماكورابا). كما جاء ذكرها عند ديودور الصقلى فى القرن الميلادى الأول.

وتقع مكة فى منتصف طريق القوافل بين اليمن والشام فى أحد أودية جبل السراة، وهو الوادى الذى وصفه القرآن الكريم بأنه "غير ذى زرع". ولكنها كانت فيما قبل الإسلام مركزا تجاريا ودينيا هاما، وفى منتصف القرن الخامس الميلادى استولى قصى بن كلاب وقبيلته قريش على مكة وأخرجوا منها قبيلة خزاعة، ولم يصل الباحثون إلى رأى حاسم فيما يتصل بأصل اسم قريش، وللطبرى نص طويل يفهم منه أنه ليس اسم شخص بل اسم سمكة ربما كانت "طوطم" القبيلة، أو صفة أطلقت على بعض زعمائها الأولين مثل النضر بن كنانة

( ) وبعضهم يشتقها من التقرش أى التجمع أو من سمكة القرش. ويقول الأستاذ لامانس فى كتابه "مكة قبيل الهجرة" إن هذه المدينة نشأت فى موقع ممتاز عند أطراف آسيا البيضاء وفى مواجهة القارة الأفريقية السوداء، كما تقع أيضا عند منخفض كبير فى جبال السراة التى تقطع الحجاز من الشمال إلى الجنوب.. وقد استغل قصى بن كلاب زعيم قريش الأهمية الجغرافية والدينية لمكة "وقد نشأ هذا الرجل عند القبائل العربية التى تقيم عند أطراف البادية، واستطاع أن ينتزع مكة انتزاعا من أيدى القبائل العربية التى كانت تسيطر عليها من قبله، ويقال أن البيزنطيين وعملاءهم من الغساسنة قدموا له العون فى هذه الحركة الانقلابية، ويؤكد الأستاذ لامانس حدوث هذه الواقعة، ويستدل على ذلك من اسم هذا الزعيم نفسه، فاسمه فى العربية معناه: الوافد أو الغريب. ومن ناحية أخرى ورد اسمه فى النقوش النبطية القديمة، فاسم قصى كان من أسماء الالهة عند الأنباط، الأمر الذى يدل على صدق ما يقال عن نشأة هذا الزعيم عند أطراف الشام، ثم انحداره إلى مكة فى القرن الخامس الميلادى. واستطاع أن ينشى جمهورية تجارية دينية تفيد من موقع مكة إلى أبعد الحدود.. وقد كان مجتمع مكة يتكون من طبقتين رئيستين، الأولى، ويطلق عليها تسمية: "قريش البطاح" وهم الذين يتولون أمر الدين والتجارة والسلطة، وبيوتهم حول الكعبة.. والثانية هم ما يطلق عليهم: "قريش الظواهر" ويقيمون خلف بيوت السادة، وهم خليط من فقراء قريش، ومن الحلفاء الموالي والعبيد، الذين يعملون فى المهن المختلفة، وقد كان من بين هؤلاء السابقين إلى الإسلام: كعمار بن ياسر وأهله وقد كانت أمه بغيا قبل الإسلام، وبلال

الحبشى، وصهيب الرومى وسلمان الفارسى وغيرهم من المستضعفين الذين عيرت بهم قريش النبى، إذا كانوا من أوائل أتباعه الذين رد لهم الإسلام إنسانيتهم، فقالوا عنهم: "وهل اتبعه منا إلا الذين هم أراذلنا".

■ ■ ■

(٣)

القـــــرآن
كمصدر للقصص الدينى

ارتبط القصص الدينى الإسلامي، منذ بداياته، بالقرآن الكريم وما جاء فيه من القصص الذى شكل أهم وأدق القصص الدينى، من حيث هو القصص القرانى "أحسن القصص" و"القصص الحق" كما أنه سجل لأنباء وأعمال الشعوب السالفة وأنبيائها ورسلها، وما يحمله تاريخهم من خبرات إنسانية صالحة لأن يعتبر بها أولوا الألباب. ويشير الفخر الرازى فى تفسيره الكبير، إلى القصص القرانى بأنه "مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة" وزاد الرمخشرى فى تفسيره بأنه "القصص الذى يرقق القلوب".

ويحتل قصص الأنبياء المقام الأول فى القصص القرآنى، لما لسير الأنبياء وتاريخهم من دور مهم فى التاريخ الإنسانى، كتجسيد للضمير الجمعى للبشرية، وكسجل لمسيرة الإنسان الروحية الإيمانية، فى مقابل المسيرة السياسية والاجتماعية التى يمثلها التاريخ السياسى، لذلك ربط المؤرخون القدامى بين جانبى تاريخ البشرية: تاريخ الرسل وتاريخ الملوك، كما فعل الطبرى فى تاريخه المعروف، أو بين ظاهر التاريخ الإنسانى وباطنه حسب تعريف العلامة ابن خلدون. ويضرب قصص الأنبياء بجذوره الأولى إلى طفولة البشرية، وسعيها المبكر إلى التعرف على قوانين الطبيعة ونواميسها التى تجسد الإرادة الإلهية.

وقصص الأنبياء، والشعوب البشرية، التى صاغها وأعاد روأيتها عن مصدرها القرآنى الإلهى، "القصاص والوعاظ شفاهيا فى عهد الرسول والعصور التالية وكما رواها المحدثون والإخباريون والمؤرخون فى كتب السنة، والسيرة، والتفسير، والتاريخ، والتصوف، وغيرها". قد انتقلت بعد ذلك إلى كتب الأدب العام، وإلى مرويات التراث الشعبى. وتمثل سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية، وكتب المؤرخين القدامى، كالطبرى، واليعقوبى، وابن كثير، وابن خلدون، وكذلك كتب تاريخ الأديان، كالملل والنحل للشهرستانى، وكتب التفسير والحديث، والكتب الخاصة بقصص الأنبياء، تمثل هذه الكتب مصادر القصص الدينى الإسلامى بداية من قصص الأنبياء إلى قصص أهل القرى البائدة، إلى السيرة النبوية الشريفة. وقد اتسعت هذه المصادر بعد ذلك، لتشمل كتب الأدب العام، كالعقد الفريد لابن عبدربه، وأمالى أبى على القالى، والكامل للمبرد، وغيرهم.. كما ضمت السير الشعبية فى متونها بعض قصص الأنبياء كما فى سيرة عنترة. وأضاف المؤلفون والمصنفون لهذه الكتب، إلى النصوص القرآنية، التى بنوا عليها قصصهم وسيرهم، ما توفر لهم من التراث الإنسانى، كقصص التوراة والإنجيل، وهو ما عرف بعد ذلك بـــ "الإسرائيليات" والأساطير الفارسية والهندية واليونانية، وهو ما عرف بـــ "أساطير الأولين" ثم أخبار العرب القديمة وأساطيرها وتاريخ أيامها قبل الإسلام، الأمر الذى جعل من هذا القصص الدينى كنزا غنيا بالمادة الأولية للإبداع الأدبى، والتاريخ الوجدانى للبشرية، فى سعيها الدائب للهداية والدين

الحق.

وإذا كان المؤرخون لم ينظروا إلى هذه المادة الغنية، كمصدر موثوق للمادة التاريخية، وإنما كإطار زمنى لبعض الأحداث، فإن هذا الموقف لم يمنع بعض المؤرخين ومؤلفي السيرة القدامى من النظرة الرحبة والمستنيرة لهذه المادة الغنية، مثلما فعل صاحب السيرة الحلبية، الذى نظر إليها كرقائق لا تدخل فى الحلال والحرام، ولا تتعلق بها الأحكام. أما ما يجوز الخلاف فيه فى نظر علماء الحديث، وما يوجب بالتالى التدقيق والتنقيب، من أجل الوصول إلى صحة الخبر، فهو ما يخص حدود الشريعة ومعرفة الحلال والحرام. وكذلك يشير الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى دراسته "الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام" إلى أن القصد من الدراسة لن يكون تحديد الإطار التاريخى للموضوع "بقدر ما سيكون محاولة معرفة نظرة الإسلام الكلية إلى تسلسل الأنبياء والمتنبئين. بطريقة تحمل فى ثناياها فكرة وحدة العقائد والأديان، فكأن الإسلام ليس دين التوحيد الإلهى فحسب، بل هو عقيدة وحدة الأديان على مر العصور، وهى الفكرة التى تتمثل فى أصول الإسلام الإبراهيمية، وفى ختام النبوة بالرسالة المحمدية". لقد ارتبط تاريخ البشرية الإيمانى بالأنبياء، منذ بداية الخليقة ووعيها لذاتها، ويكاد عدد الأنبياء الذى تشير إليه أخبار التراث الإنسانى، يفوق الحصر العددى، فالنبوة كما يشير القرآن الكريم مرتبطة بالمشيئة الإلهية وبالوحدانية "ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون" وقد بعث الله برسله إلى

كل الأمم، بلا استثناء، يدعوهم إلى عبادته واجتناب الطاغوت، وهؤلاء الرسل الموحى إليهم من الله، والذين سبقوا برسالاتهم، يعرفهم العلماء من أهل الذكر، فالعدالة الإلهية لم تعاقب الظالمين والجاحدين من الشعوب السابقة، قبل أن ترسل إليهم من يبلغهم برسالة الله وتعاليمه "وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون".

لم يحدد القرآن الكريم إلا أسماء الأنبياء الأساسيين: آدم نوح إبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد خاتم الأنبياء عليهم السلام. يليهم: داود وسليمان ويعقوب ويوسف وأيوب، وإسماعيل، وشعيب، وهود وصالح عليهم السلام. وينتمى هؤلاء الأنبياء إلى العبرانيين والسريان والعرب، وهى الشعوب العروبية، التى شكلت الحضارات الإنسانية الأولى فى منطقة الشرق الأدنى القديم.. لذلك أطلق المؤرخون القدامى لخيالهم العنان فى إحصاء عدد الأنبياء.. فالسيرة الحلبية تشير إلى أن أنبياء بنى إسرائيل وحدهم ألف نبى.. ويصل وهب بن منبه راوى أساطير الأولين بعدد الأنبياء جميعا إلى مائة وأربعة وعشرين ألفا! أما الرسل فقد اقتصر عددهم على ما ورد فى القران الكريم، "لأن الرسول أخص من النبى، ولأن كل رسول نبى، وليس كل نبى رسولا".

■ ■ ■

الرؤية القرآنية للتاريخ: الزمان

ليس القرآن الكريم، كما أشرنا من قبل كتاب قصص عن الأنبياء والرسل والأمم السابقة، كما أنه ليس كتاب تاريخ يتتبع سير الأجيال وتاريخ الشعوب، ولكنه تنزيل من رب العالمين على نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه يفيد من قصص الأنبياء وسير الأولين، وتاريخ الأمم والملل والنحل فى الدعوة إلى حياة جديدة سامية، تعى تجربة الماضى فى جوهرها، تاركة الوقائع والتفاصيل للمؤرخين والرواة.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا المنهج صراحة، فهو يخاطب النبى عليه السلام بقوله: "ولقد أرسلنا رسلا من قبلك، منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك" وما كان على الرسول أن يبينه: "قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله، أفلا تعقلون. فمن أظلم ممن افترى

على الله كذبا أو كذب بآياته، أنه لا يفلح المجرمون". فالقرآن الكريم عنى أساسا بجوهر الرسالات الدينية التى سبقته، والذى تمثل فى الحضارات التى شهدت هذه الرسالات، سواء منها تلك الحضارات التى سادت ثم بادت، كما حدث فى الحضارات العربية القديمة، أو تلك التى تعرضت فيها الكتب المقدسة إلى تحريفات توافق أهواء ومصالح المسيطرين على هذه الحضارات

فالتأريخ على حد تعبير السيد محمد رشيد رضا فى "تفسير المنار" غير مقصود للقرآن الكريم "لأن مسائله من حيث هو تاريخ، ليست من مهمات الدين، من حيث هو دين، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره، لم يبين الزمان والمكان، كما بينا فى سفر التكوين". (السفر الأول من أسفار العهد القديم فى الكتاب المقدس التوراة).. والأمر كذلك فى رأى الدكتور محمد أحمد خلف الله فى كتابه "الفن القصصى فى القرآن الكريم" إذ يرى أن القرآن الكريم لم يقصد إلى التاريخ إلا فى القليل النادر الذى لا حكم له، وأنه على العكس من ذلك، عمد إلى إبهام مقومات التاريخ من زمان ومكان. ومن هنا يتبين أن القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ، وهى غير مقصودة، وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآنى.

وفى دراسة مهمة للدكتور عبد العزيز كامل أستاذ الجغرافيا البشرية، والمفكر والسياسى المعروف، عن "القرآن والتاريخ" يحدد علاقة القرآن الكريم بعناصر التاريخ من زمان ومكان وأحداث وشخصيات وأبطال ومناهج التاريخ فى جمع

المعلومات وتحقيقاتها وتفسيرها. وصناعة التاريخ، بمعنى استلهامه في صناعة المجتمعات الإنسانية.

يبرز القرآن ثلاثة أنواع للزمان، هي: الزمن الكوكبى الفلكى، والذى تقوم عليه حسابات البشر فى معاشهم، كما تقوم عليه حسابات العبادات كالحج والصوم والصلاة والزكاة، وأعمار الحضارات ودورات ازدهارها وسقوطها، يقول الله تعالى: "أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون، من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون".. كما يقول تعالى عن منكرى البعث: "والذى قال لوالديه أف لكما اتعد اننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى، وهما يستغيثان الله، ويلك أمن أن وعد الله حق، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين".

وإلى جانب اهتمام القرآن الكريم بالزمن الكوكبى، فقد اهتم بما قبل هذا الزمان، أى ما قبل خلق الكون والإنسان، كما اهتم بما بعد ذلك الزمان "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار".. واهتم القرآن بالزمن النفسى، أى بإحساس البشر بالزمن، ويضرب الله له مثالا بحوار يدور يوم القيامة:

"قال: كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟

قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين.

قال: إن لبثم إلا قليلا لو أنكم تعلمون أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون".

ويستوقف النظر الفارق بين معالجة القرآن لأجزاء الزمان، ومعالجة سفر التكوين في العهد القديم لها.. حيث ورد فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين ما نصه: "هكذا كتاب مواليد

ادم. يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله، ذكرا وأنثى خلقه الله وباركه، ودعا أسمه ادم خلق. ذرية ادم أسما أسما، وعمرا عمرا حتى طوفان نوح، ثم تتعاقب سلالة نوح أسما أسما وعمرا عمرا". ويعقب الباحث موريس بوكاى فى كتابه "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" بقوله: "ولكى نكون أكثر قربا من الحقيقة، لنقل أن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبرى يحدد تقريبا بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد وهناك استحالة وجود اتفاق واضح بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان، وبين أكثر المعارف تأسسا فى عصرنا".

ويفسر الدكتور عبد العزيز كامل سورة يوسف فى ضوء أسلوبين في معاملة الزمان جمع بينهم القران فى تلك القصة.. ففى موقفه عليه السلام من امرأة العزيز لا تحدد المدة فى القصة ولكن يشير إلى الزمن إشارات مجملة: "حتى حين" و"بضع سنين".. أما عندما يتصل الزمان بالتخطيط لإنقاذ الناس من المجاعة المنتظرة، فيبدو حساب الزمن دقيقا، "قال: تزرعون سبع سنين دأبا، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون".. فقد ارتبط حساب الزمن هنا كما يقول الدكتور عبد العزيز كامل بالتخطيط والعدل، كما ارتبط إغفال الزمن بالتسيب والظلم، وكان تعريف الزمان وتنكيره، عاملا ساعد على إبراز الظاهرة الاجتماعية. ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية هدف القصة فى القران.

الرؤية القرآنية للتاريخ: المكان

.. وكما أن القرآن الكريم كما أسلفنا ليس كتابا في القصص أو التاريخ فهو أيضا ليس كتابا في الجغرافيا، فاهتمامه بالمكان ينبع ويتجه إلى الدعوة الإسلامية، فمركز التاريخ الإنساني في القرآن هو البيت الحرام، أول بيت وضع للناس وحوله منطقة القلب التي ترتبط بها شعائر العبادة الأساسية من الصلاة والحج: الوحدة والتوحيد، والكسب الحلال للإنفاق الحلال "وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" وحولها دائرة الغزوات حيث يتمثل الدفاع عن العقيدة وحمايتها، وتليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد على المحورين الشمالي والجنوبي، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير في الأرض لمزيد من الاعتبار، سيرا إلى مطالع الشمس ومغاربها، وعملا في مجال

العقيدة، والإنشاء والتعمير، والحصول على مزيد من العلم مع التواضع الدائم لله.

ويتتبع الدكتور عبد العزيز كامل في دراسته "مدخل جغرافي إلى قصص القرآن الكريم "تفاصيل هذا الإجمال.. فالبيت الحرام الذى يمثل منطقة القلب في القصص القرآنى والتاريخ الإنسانى، ارتبط به أكبر عدد من الأسماء متجمعة: البيت، مكة، مقام إبراهيم، الصفا، المروة، عرفات، المشعر الحرام، ثم ما جاء بصفته لا باسمه كالغار الذى أوى النبى فى هجرته ثم "نطاق الغزوات" الذى يحيط بمنطقة القلب، المدينة، وقد وردت فى القرآن الكريم باسمها كما وردت باسم يثرب، وغزوة بدر وقد اختصها القرآن بورودها فى ثلاثة أماكن: فهى بدر وهى العدوة الدنيا والعدوة القصوى.

وعلى محيط دائرة القلب أو قريبا منها توجد: اليمن، العراق، الشام، مصر، وفى نطاق هذه الدائرة وقعت معظم أحداث القصص القرآنى.. ففى جنوبى اليمن وقعت أحداث قصة قوم عاد ونبيهم هود.. "واذكر أخا عاد إذ انذر بالاحقاف" وهى جبال الرمل باليمن، وقد كانت موطنا غنيا، ثم سبأ التى كان لهم فى مساكنهم أية "جنتان عن يمين وشمال" ومازالت آثار سد مأرب والجنتين باقية.

وعلى المحور الشمالى حيث طريق التجارة، تقع قرى قوم لوط التى أشار إليها القرآن الكريم باسم المدينة، والسبيل المقيم، والمؤتفكات، ثم مدين، التى يسكنها أصحاب الأيكة.. وديار ثمود أو أصحاب الحجر، الذين كانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين،

والذين أخذتهم الصيحة مصبحين.

ثم يتفرع محور الشمال فى الجغرافيا القرآنية إلى ثلاث شعب.. الأولى إلى الشمال، حيث المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله.. ثم بلاد الروم، الذين غلبوا فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون.. وقرية سورة ياسين التى يرى الزمخشرى فى تفسيره أنها انطاكية.. وامتدادا لقوس بلاد الشام الموصل للعراق، هناك بابل، وتتصل بالعراق قصص نوح وإبراهيم، كما يتصل بالشام قصص إبراهيم وذريته.. ثم إلى الشمال الغربى حيث مصر، التى افتخر فرعون بملكها "أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى؟" وفى الطريق إلى سيناء: "وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين" وترتبط بمصر قصص: إدريس، إبراهيم، اسحق وبنيه، إسماعيل، يوسف، موسى وعيسى ومحمد فى ليلة الإسراء وبولده إبراهيم من ماريه القبطية.

أما القصص القرآنى إلى لم يحدد مكانها، فأبرزها: قصة آدمَ، قصة أهل الكهف، وقصة بدء التاريخ الإنسانى فى القرآن هى قصة الأب الأول آدم: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام أن الله كان عليكم رقيبا".. وترد قصة أبى البشرية الأول فى مطالع سورة البقرة فى القرآن الكريم، كما ترد فى سفر التكوين الذى يبدأ به العهد القديم من الكتاب المقدس. وتلتقى القصة التوراتية مع القصة القرآنية فى بعض الجوانب، ثم تختلفان فى نواح جوهرية.. ويأتى الاتفاق فى وجود الأب الأول والأم الأولى، وفى كرامة البداية، ثم فى

تعرضهما للاختبار ، أما الخلاف الجوهرى، فهو فى قضية "التوبة" حيث غفر الله لادم وتاب عليه، يقول تعالى فى سورة طه "وعصى ادم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى".. وقد وردت توبة ادم فى القران مرتين، الأولى فى سورة طه المكية، والثانية فى سورة البقرة المدنية "كانت عند ادم وزوجه حرية الاختيار وكانت تجربته الأولى نجاحا: عندما علمه ربه الأسماء، ثم أمره أن يخبر بها الملائكة، فقام بأمر الله، ما ضل ولا نسى، "وعلم ادم الأسماء ثم عرضها على الملائكة فقال: أنبئونى بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك، لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العزيز الحكيم، قال: يا ادم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون" ثم تجئ حرية الاختيار وهى التجربة الثانية "فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوأتهما. قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين".

كانت التجربة صراعا بين الطموح بكل مغرياته، وبين صريح أمر الله، كانت تجربة أولى فى حرية الاختيار ، تاب منها ادم وقبل الله توبته، وتلقى من الله كلماته، وجعله خليفة فى الأرض، وهو نبى مكرم، هذا بعد أن كفل له فى الجنة أمورا هى حاجات الإنسان الأساسية "أن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى" فليس هناك خطيئة سابقة، فتوبة الله على ادم سبقت. وكلمات الله تهديه الطريق. لا لعنة.. لا عقوبة. لا عداوة بين الرجل والمرأة. ولا بين الإنسان والأرض. ولا بين الإنسان والحيوان، وهذه الصورة القرآنية تخالف ما يصوره الإصحاح الثالث من سفر التكوين".

القرآن وأبطال التاريخ المجهولون

عرض القران الكريم قصص الأنبياء ضمن مفهوم يؤكد على بشريتهم من جهة وعلى اتباعهم لأوامر الله من جهة ثانية، يقول الله تعالى على لسان نبيه الكريم: "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا" ويقول تعالى عن الأنبياء والمرسلين السابقين: "وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق".. وهم جميعا سيلاقون الموت، وتبقى رسالاتهم، كما أنهم جميعا خلقوا من تراب..

وتتبع عصمتهم من اصطفاء الله لهم، "إن الله اصطفى ادم ونوحا وال ابراهيم وال عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم".. وهذا المفهوم للعصمة النبوية البشرية يخالف مفهوم النبوة فى أسفار العهد القديم.

ومما تفرد به القرآن الكريم عنايته بالأبطال المجهولين في التاريخ، فقد اختصهم بعدد من الآيات، وأشاد بمواقفهم، وسلط عليهم من الضوء ما تجاوز ما سلطه على بعض الأنبياء، وقد لفت هذا الأمر اهتمام بعض المفسرين والمؤرخين والباحثين إلى هذه الشخصيات التى لم يتوقف عندها كتاب الملاحم ورواة الأخبار، وحاولوا أن يتقصوا أخبار هؤلاء الأبطال المجهولين: ما هى أسماؤهم. ومتى عاشوا. وأين.؟ كما جذبت قصة أهل الكهف وهم من هؤلاء المجهولين اهتمام عدد من الباحثين لتحديد الموقع الذى كان فيه الكهف، والذى رأى البعض أنه فى موقع قريب من العاصمة الأردنية عمان، بينما رأى آخرون بأنه على قرب إفسوس بآسيا الصغرى، وإن كان القرآن الكريم، كما يقول الدكتور عبد العزيز كامل. يوجه عنايته أساسا إلى العبرة الأخلاقية دون تحديد الأشخاص، إلا حيث تقتضى العبرة ذكرهم، وقد تجاوز القرآن الكريم فى قصص هؤلاء الأبطال المجهولين عناصر تحديد الأسماء والأماكن والأزمنة.

■ ■ ■

وأكثر قصص الأبطال المجهولين القرآنية تفصيلا هى قصة "مؤمن آل فرعون" التى تبدأ بقوله تعالى فى سورة غافر: "وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه، وإن يك صادقا يصبيكم بعض الذى يعدكم، إن الله لا يهدى من

هو مسرف كذاب" ثم يستمر السرد القرآنى للقصة ثمانى عشرة أية تحمل خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون إلى قومه منذرا إياهم ومحذرا من بأس الله، إذا جاء، ومن يوم مثل يوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ثم يأتى ختام القصة بعد عرض مشاهد يوم القيامة، يوم يقوم الأشهاد لتؤكد أن الله ينصر رسله وينصر الذين أمنوا فى الحياة الدنيا والآخرة. "والقصة مما تفرد به القرآن، وهى درس فى الدفاع عن الحق والدعوة إليه، لجأ فيها المؤمن إلى تذكير قومه بالآخرة، ثم ذكرهم بقوم نوح وعاد وثمود، وربط جحودهم بما حدث من آبائهم بعد وفاة يوسف "حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا" وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون وهو يأمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا، يبلغ به أسباب السماوات ليطلع إلى إله موسى، ثم دعا قوم فرعون إلى اتباع الحق. وصرح الرجل بإيمانه بعد أن كان يكتمه، وحذر قومه مغبة سيئات ما مكروا ونجى الله المؤمن وحاق بآل فرعون سوء العذاب".

وتعرض سورة يس قصة مؤمن آخر دافع عن رسل عيسى الذين جاءوا إلى مدينته، فلما علم بهم، وبما يحملونه من هداية، ومن دعوة إلى الله، جاء من أقصى المدينة يسعى ليقول لقومه: "اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون" وتتضمن سورة الكهف قصص: أهل الكهف، وصاحب الجنتين الذى اغتر بما يملك، ثم يأتيه صاحبه المؤمن ليدله على الصواب ويحذره من عاقبة الجحود، ثم قصة العبد الصالح الذى تعلم منه موسى، وقصة ذى القرنين: "ومع ان المدار الرئيسى لهذه

القصص جميعا هو الإيمان بالله تعالى، إلا أن مناشط هؤلاء الأبطال فى المجتمع متنوعة، وتمثل الحرف الرئيسة، زراعة وصناعة وتشييدا (بناء).. وهذه البطولات المجهولة ممتدة ولا تزال تظهر فى نصرة الحق، يقول الله تعالى: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا". وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم:

"فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم، من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض، فالذين هاجروا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا، لاكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب". وهكذا تدعو الايات إلى متابعة رحلة الخير والعمران، وبناء الحياة الاجتماعية على قاعدة من العمل الصالح، منيرة الطريق أمام البطولات الجديدة التى لا تقتصر على مواقع محددة من المجتمع.

"وصفوة القول أن البطولة فى القرآن لا تقتصر على الأنبياء، وإن كان ليم فيها النصيب الأوفى، ولا تقف كثيرا عند الملوك، وإنما تمتد مظلتها لتشمل الأبطال المجهولين والجموع المؤمنة. وإذا كانت العناية قد زادت فى الاتجاهات التاريخية المعاصرة بحركات الشعوب والجماعات الإنسانية، وفيها الكثير من البطولات المجهولة، فإن قطاعات التاريخ التى عرضها القران الكريم تضم هذه جميعا وتتسع له".

■ ■ ■

القرآن.. وأساطير الأولين

للعرب مثل بقية شعوب الأرض أساطيرهم، وقد مروا كما مرت تلك الشعوب "بالمرحلة الأسطورية" التى يعرفها بعض الباحثين بأنها قطعة من حياة الروح التى تعكس تفكير الشعب الحلمى، فالحلم هو أسطورة الإنسان الفرد، كما أن الأسطورة هى مغامرة العقل البدائى الأولى.. كما إنها هى الرحم الذى خرجت منه فنون السرد الشعرية والنثرية، كالملحمة، والتراجيديا، والحكاية. وفى تراثنا العربى ـ تنتمى الأسطورة والقصة معا إلى مرحلة الثقافة الشفاهية، التى ما زالت ممتدة حتى عصرنا.

وفى الأديان القديمة قامت الأسطورة مقام العقيدة بمعناها الشامل والمقدس، كما كانت لها وظيفتها الاجتماعية والقانونية والأخلاقية، وهى فى صيغتها الأولى كانت رمز الجانبين: احدهما اعتقادى "تكون فيه الأسطورة أداة للمعرفة والكشف

والفهم والتنظيم، والآخر طقسي يستهدف استرضاء الآلهة والتعبد لها، فالأسطورة والحالة هذه هي التفكير في القوى البدائية الفاعلة الغائبة، وراء هذا المظهر المتبدى للعالم، وكيفية عمل هذه القوى وتأثيرها وترابطها مع عالمنا، ولهذا كله يكاد الباحثون يجمعون على أن الأسطورة كانت كل شئ بالنسبة للإنسان القديم أو البدائي، كل تأملاته وحكمته ومنطقه وأسلوبه في الكشف والمعرفة ووضع نظام مفهوم ومعقول للوجود، يقتنع به هذا الإنسان ويجد مكانه الحقيقي ضمنه، ودوره الفعال فيه، أنها الإطار الأسبق للتفكير الإنساني المبدع الخلاق، الذي قادنا على طول الطريق الشاقة التي انتهت بالعلوم الحديثة، والمنجزات التي تفخر بها حضاراتنا القديمة، أنها أداة الإنسان الأقدم في التفسير والتعليل، كانت أدبه وشعره وفنه، كما كانت شرعته وعرفه وقانونه". [١]

وقد ورد مصطلح الأساطير في القرآن الكريم مرتبطا بالتصورات الدينية الوثنية، وليس بمعنى الأباطيل والخرافات والأكاذيب، كما فهم بعض المفسرين المتأخرين، وكما أصبح دارجا في الاستعمال اللغوي السائد الذي يشير إلى الأسطورة بمعنى مالا وجود له في الواقع، رغم أن الجذر اللغوي للكلمة يشير إلى معناها الصحيح فالفعل الثلاثي "سطر" يشير إلى معنى الاعتقاد والنص والتأليف، الذي يقود إلى التدوين والتسطير والنقش، ويشير السياق القرآني إلى أن أساطير الأولين كانت تتلى على الناس أيضا بمعنى تداولها شفاهيا. وقد وردت كلمة أساطير في القرآن الكريم بصيغة الجمع دائما وفي السوز المكية وحدها، أو في السنوات الأولى لنشر الدعوة المحمدية، وفي

مواجهة المعتقدات الجاهلية الوثنية. قال تعالى: "وقالوا أساطير الأولين اكتتبها، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا". وقد سبقت الإشارة إلى قصة النضر بن الحارث وما كان يحدث به سادة قريش من أساطير الفرس والأمم القديمة.. فالأسطورة فى المفهوم القرآنى، تشير إلى المعتقدات الدينية والثقافية للأزمان الغابرة والأمم البائدة، والتى تم تدوينها تسطيرها لهدف دينى وثقافى، ولتصبح نصا مقدسا عند الشعوب السابقة، وأن كان الأصل فيها التداول الشفاهى، أثناء الطقوس والشعائر، فالشفاهية هنا لا تتناقض مع الكتابية.

وقد استخدم المشركون مصطلح الأساطير فى حربهم الفكرية والدينية ضد القرآن الكريم بمعنى سلبى، بمعنى الأحاديث الباطلة، والأقاويل التى تنتمى إلى زخرف القول. وقد تبنى المفسرون وعلماء اللغة، بعد ذلك، هذا المعنى، فأصبحت الأسطورة عندهم، هى القصة الدينية التى لا أصل لها من وحى أو خلافه، وهى نصوص كتابية أو شفاهية ذات لغة شعرية منمقة وزخرفة، تنسب إلى الإبداع الجماعى، الذى نقلها عن أحاديث الأولين وخرافاتهم، أو هى سجع الكهان كما يرى بعض المفسرين. "ولكن ما أن اطمأن العرب إلى صدق الرسالة المحمدية، حتى اختفى مصطلح الأساطير من جميع السور المدنية بلا استثناء، وأصبح القرآن الكريم كتاب الله المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وبات دين الأباء ومعتقدات الأجداد هى (أساطير الأولين) بطوابعها الوثنية وقوالبها القصصية، فقد كانت معظم المعتقدات والمعارف الجاهلية مصاغة صياغة قصصية. وبصرف النظر عن المحتوى

العقائدى أو الدلالى للأساطير، فإن الذى يعنينا هو تأكيد القدماء على جانبها الحكائى أو إطارها القصصى. باعتباره الجانب الحى الباقى من الأسطورة، حيث تموت وظائفها الاعتقادية والدينية والمعرفية" (٢).

وقد وقف علماء الحديث، ورواة الأخبار، والفقهاء المسلمون فى عصر التدوين موقفا متشددا من الأساطير العربية القديمة، بدافع من التحرج والتورع عن روايتها، وترديدها أو تدوينها، اللهم إلا عند ضرورات قصوى، مثل شرح شعيرة إسلامية، أو بيت من الشعر، أو مسألة بلاغية، رغم أن التدوين تم بعد استقرار الدين، وبعد عصر الفتوحات الكبرى. وعندما سجل محمد بن اسحق أول رواة السيرة النبوية، بعض هذه الأساطير، جاء ابن هشام فاستبعد هذه المادة الأسطورية. ومن المؤكد أن معظم التراث الأسطورى العربى قد ضاع فيما ضاع من التراث الأدبى العربى السابق على الإسلام، بعد أن مر فى عصر التدوين بالمصفاة الإسلامية الدينية والثقافية، وإن تسربت بعض هذه المادة الأسطورية إلى كتب الإسرائيليات والكتب التاريخية الأولى، وموسوعات الأدب العام المبكرة و"ضاع على العرب علم غزير" على حد تعبير الأصمعى الراوية المعروف، لكن هذا الأمر لم يقعد الباحثين المعاصرين عن التنقيب والبحث عن بقايا المادة الأسطورية فى المصادر القديمة .

■ ■ ■

١و٢: التراث القصصى فى الأدب العربى   د. محمـــد رجـــب النجار.

(٤)

بدايات
القصص الدينى الإسلامى

يعرف القصص الدينى الإسلامى فى التراث العربى، اختصارا، بـــ "القصص المسجدى" لأنه نشأ ونما فى جانبيه الرسمي والشعبى، فوق منابر المساجد ابتداء من العصر النبوى، فالعصر الراشدى إلى العصر التركى العثمانى الذى شهد هو والعصر المملوكى إنتاجا غزيرا شعرا ونثرا فى القصص الدينى الإسلامى، وخاصة فيما يتصل بالسيرة النبوية.

"وهذا يعنى أن للقصص الإسلامى تاريخا طويلا، تفرع فيه وتشعب، وتعدلت فيه وظائفه وتبدلت، وانقسمت السلطات بشأنه وتفرقت.. لكنه ظل صامدا فى جانبيه الرسمى والشعبى: الرسمى تحميه الدولة، والفقهاء، دون أن ينجح ابتداء من القرن الثانى (الهجرى) فى أن يكون له جمهوره، أما الشعبى فقد نما وتطور، فنيا وبنائيا ووظيفيا، حتى استأثر بجمهور المسلمين، برغم الحرب الشعواء التى شنها عليه النظام، والفقهاء، ورجال الحسبة (المحتسبون) على مر العصور.. فقد كان أقرب إلى نفوس المستمعين، من حيث موضوعه وقضاياه ومضامينه، كما كان أقرب إليهم من حيث جمالياته السردية، وعبقرية الأداء القصصى الشفاهى لقصاصى العامة. (التراث القصصى فى الأدب العربى   د. محمد رجب النجار).

ولعل الديانة اليهودية هى أبرز الديانات التوحيدية احتفالا

بالسرد القصصى. فقد ورثت أسفار العهد القديم (التوراة) التراث القصصى للشعوب التى إحتك بها العبريون كالمصريين، والبابليين، والسومريين، والكعنانيين، منذ عصر الأسطورة التى كانت الإطار الأقدم والمحبب لسرد القصص المقدسة عند هذه الشعوب، والتى كانت تحتوى داخلها (الأسطورة) على المعتقدات البدائية الدينية وعلى خبرات الشعوب القديمة فى المعرفة، ثم جاء الإنجيل ليرث ذلك التقليد الدينى اليهودى، فى الاعتماد على السرد القصصى، فى بث تعاليمه ورؤاه الروحية. ثم ورث القرآن الكريم، بإبداعه الخاص،والذى لم تكن القصة الدينية فيه، مقصودة لذاتها، وإنما لوظيفتها الدينية والتربوية، ورث القصص الدينى الذى عرفه أهل الكتاب قبل الإسلام.

لقد سمح النبى صلى الله عليه وسلم لبعض صحابته برواية بعض القصص الدينى القرآنى فى مسجده فى المدينة، باعتبار هذه القصص من القصص الحق، لا قصص الأسمار والخرافات التى كان بعض العرب يقصها ليستأنس بها الناس، وكان الصحابى "تميم الدارى" أول قاص فى الإسلام يقص على الناس القصص الدينى بعد وفاة الرسول، ثم كان "عبد الله بن عمير" على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهم.

ثم ارتبط القصص الدينى القرآنى، بعد ذلك، بالوعظ المسجدى، حيث أصبح الهدف من السرد القصص الفنى هو "القصص والوعظ والتذكير" ويقول ابن الجوزى أن للقصص الدينى ثلاثة أسماء هى: قصص تذكير – وعظ. فالقاص هو الذى يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها، وشرحها، وذلك هو القصص،

وهو فى الغالب، ممن يروى عن أخبار الأولين. لأن فى إيراد أخبار الأولين عبرة لمن يعتبر، وعظة لمزدجر، واقتداء بصواب لمتبع.. وأما التذكير: فهو تعريف الخلق نعم الخالق عليهم، وحثهم على شكر نعمته، وتحذيرهم من مخالفة أوامره ونواهيه. وأما الوعظ فهو: تخويف يرق له القلب. وقد أصبح اسم القاص يجمع بين الصفات الثلاثة وقد أمر القرآن الكريم بهذا كله، قال تعالى: "فاقصص القصص" وقال تعالى "فعظهم" وقال تعالى: وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين".

ولم يقتصر القصص القرآنى، على الوظيفة التذكيرية والوعظية وحدهما فى عصر الخلفاء الراشدين بل أنه أيضا خرج من حلقات الوعظ والتذكير فى المسجد ليرافق الجيوش فى فتوحاتها الإسلامية، حيث أصبحت هناك حاجة إلى هؤلاء القصاص لتثبيت القلوب، وشحذ الهمم، فكان القصاص المصاحب لجيش الفتح يحث المجاهدين على الثبات والاستبسال، كما يوبخ من تراوده نفسه على النكوص والتراجع وكان طبيعيا أن تطغى الوظيفة التحريضية على قصص تلك المرحلة، قصص الفتوحات، فلما انتهى دورهم بتوقف قصص الفتوحات، عادوا إلى أوطانهم، أو استقروا فى الأمصار الجديدة يواصلون القص، وانتهى بهم المطاف إلى أن أصبحوا قصاصا محترفين، واصلوا دورهم القصصى لغايات دينية كما كان أمرهم من قبل.

■ ■ ■

صورة القاص فى التراث

كان للعامة قصاصهم وواعظهم، كما كان للخاصة أيضا، وللخاصة السبق فى خلق وظيفة القاص، الواعظ، المذكر.. ثم شاركوا العامة بعد ذلك مجالسهم وحلقات قصاصيهم، خاصة إذا كان صاحب المجلس من سادات القصاص والمذكرين.

لكن هذه المجالس تحولت رويدا رويدا إلى مجالس للعامة، فرضوا عليها تقاليدهم الخاصة، ولم يعد المحدث القاص فيها من السادة، بل أصبح واحدا من العامة، يتخذ من القص مهنة يعيش منها، وأصبحت تلك المجالس أقرب ما تكون إلى حلقات القصص الشعبى، حيث اقتصر رواذها على العامة والنساء، وحيث تحول القاص إلى ما يشبه الممثل المسرحى فى عصرنا ورغم أن الفقهاء وعلماء الخاصة استنكروا هذا النوع من القصص الشعبى الدينى، إلا أن الجمهور تعلق بهذا اللون من

القص، الذى رأى فيه نوعا من الأداء الفنى الشفاهى، يخاطب عند هذا الجمهور المحروم عاطفته الدينية والفنية معا!

وكان الفقهاء قد حددوا الشروط التى يجب أن تتوافر فى القاص بـــ:

- حفظه للحديث النبوى ومعرفته بصحيحه من سقيمه معرفته بتاريخ الأمم وسير الأولين.

- حفظه لأخبار الزهاد والمتقين فقهه فى الدين فصاحة لسانه ومعرفته باللغة العربية وعلومها. إضافة إلى السلوك القويم، وتنزهه عن النفاق وأكل أموال الناس بالباطل، وتجنبه للعوام والمزاح معهم، ولا يرى إلا فى ساعة وعظه حتى يظل موقرا فيهم، مهيبا بينهم، فإنه متى خالطهم أو مازحهم ذهبت هيبته من القلوب.. ومتى كان القاص عالما بتفسير القرآن والحديث وسير السلف والفقه عرف الجادة ولم تخف عليه بدعة من سنة، ودله علمه على حسن القصد وصحة النية، حسبما يقول ابن الجوزى، الذى يستمر فى رسم الصورة المثالية للواعظ أو القاص أو المذكر، من وجهة نظر الخاصة" فينبغى على الواعظ أن يحصر قصصه فى إطار المواعظ المرققة والزواجر المخوفة، وأن يضمن كلامه الوعد والوعيد، والتشويق إلى الجنة والتخويف من النار، والأمر بالمحافظة على أركان الإسلام، وبر الوالدين وصلة الرحم وفعل المعروف والنهى عن المنكر، وإمساك اللسان عن فضول الكلام، وغض البصر عن الحرام.. وليكن ميله إلى المخوفات أكثر بعد أن غلب الطمع على القلوب، ولا بأس فى ينشد الأدبيات الزهدية، فإن من الشعر حكمة، وأن

يتكلم فى الأصول ويترك الفروع، وأن يدعوا الناس إلى الترحم على الصحابة، ويكف نفسه عما شجر بينهم بمعنى أن يبتعد عن القصص التى تصور الصراعات التى حدثت بين الصحابة فإن وعظ سلطانا تلطف غاية اللطف، فليذكر الوعظ عاما ليأخذ السلطان منه نصيبا. وقد كان فى السلاطين من يواجه بالإنكار فيصبر، وليس ذلك بحرام ولكن التلطف أولى، قال عز وجل "فقولا له قولا لينا" فإن قيل: فما تقول فى قوله عليه السلام: "افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" فالجواب أنه إذا كان الجائر لا يقبل الحق جاز أن يورى عن الحق خوفا على الناس. والأفضل أن يبدأه بالحق، ومتى ما أمكن التلطف فلا وجه للعنف. [نقلا عن د. محمد رجب النجار التراث القصصى].

ولكن هذه الصورة المثالية للواعظ القاص الذى هو جزء من السلطة السياسية والدينية، لم يكتب لها الانتشار كثيرا، إذ غلبت عليها الصورة الشعبية لتلك الشخصية، كتلك التى جاءت بعض الأخبار والأقوال عنها فى كتب التراث ففى كتاب "البخلاء" للجاحظ، يذكر على سان أحد المكدين [المحتالين على الرزق بالتسول، وهى طائفة لها نوادرها وأشعارها وأخبارها فى التراث]. أنه لو ذهب ماله لجلس قاصا.. فاللحية وافرة بيضاء، والحلق جهير "عالى الصوت سليم النطق" والسمت حسن "حسن الهيئة والمظهر" والقبول على واقع "عنده قبول وحضور كما يقال عن الممثل" أن سألت عينى الدمع أجابت "قدرة على التقمص والتمثيل".. ثم يضيف الجاحظ فى كتاب البيان والتبين، أن من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى، ويكون شيخا،

بعيد مدى الصوت، ويرى عالم آخر أن القاص الأعمى أحسن من المبصر، حتى لا تقع عينه على مستحسنات النساء، اللاتى يحضرن مجلسه أو يتحلقن حوله، ويحدد آخرون الهيئة التقليدية للقاص بإطالة اللحية وعظم العمامة، ليزيد من وقار نفسه فى أعين من يحضر مجلسه.. وينقل ابن الجوزى فى كتابه عن "القصاص والمذكرين" عن أبى الوفاء بن عقيل" أن على القصاص أن يلبس متوسط الثياب، لكي يقتدى به، فلكل قول زى، "وكما لا يحسن الغناء إلا من الجوارى الخرد، ولا الغزل إلا من عاشق، ولا النوح إلا من ثاكل، ولا ذكر الأوطان إلا من غريب، فكذلك لا يقبل الوعظ إلا من متقشف متزهد متورع، من وراء مدرعة صوف، ونحافة جسم، وقلة قوت، اشتغالا عن البدن بفضائل النفس. كالطبيب الظاهر الحمية، فأما من يخرج بطينا فاخر الثياب، مداخلا للسلاطين، فكيف تستجيب له القلوب؟ إنما يسمع من السمار، ولربما كانت الصور والسمات "المظهر والهيئة" تؤثر أكثر من الألفاظ، وقد قيل: "من لم تنفعك رؤيته لا تنفعك موعظته".. ويحذر من اللفتات الحسنة، والاتيان بالحركات والإشارات الأنيقة، لأنه "متى كان القاص أو الواعظ شابا متزينا للنساء فى ثيابه وهيئته، كثير الأشعار والحركات والإشارات، ويجلس مجلسه النساء فيحذر منه، وهذا منكر يجب منعه، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح، ولا ينبغى أن يعظ إلا من ظاهره الورع وهيئته السكنية والوقار، وزيه زى الصالحين".

■ ■ ■

لقد تحولت صورة القاص "الواعظ والمذكر، كما تحول مجلسه،

عندما أصبح القاص وجمهوره من العامة، فلم يكن يميز واعظ العامة عن جمهوره إلا قليل من العلم الدينى، وكثير من المرويات الشفاهية الشعبية عن الأنبياء والأولياء والمتصوفة.

ويسرد الدكتور محمد رجب النجار فى كتابه المهم "التراث القصصى فى الأدب العربى" استنادا إى مصادر تراثية وخاصة ما كتبه ابن الجوزى فى كتابه "القصاص والمذكرين" يسرد تفاصيل ما حدث لشخصية القاص ولمجالس القصص الدينى الشعبى، من تغيرات جعلتها تقترب من حلقات الفرجة المسرحية التى عرفتها مجتمعات عربية كثيرة، حتى عهد قريب جدا، مثلما كان يحدث فى موالد وأسواق المغرب العربى.

فمع بروز ظاهرة قصاص العامة فى العصر المملوكى، شرع العوام فى تزيين المنبر الذى كان يجلس عليه القاص بالخرق الملونة، وذلك لإضفاء جو خاص على المكان، هو جو الحزن، والخشوع، والتخويف والتحذير، بحيث يكون الجو مناسبا لما يقصه القاص من قصص دينى يدور حول هذه الموضوعات، وعندما استنكر الفقهاء عملية تزيين المنبر، نزل القصاص عنه وجلسوا على كراسى خاصة معدة لهم، وأطلق على هؤلاء القصاص لقب "أصحاب الكراسى" ولم يتخل القاص أو جمهوره عن صنع ديكور خاص، بقدر ما سمح به خيالهم، فعلقوا خلف كرسى القاص سجادة صلاة مرسوم عليها صورة الكعبة، أو المسجد النبوى وهذا من جنس ستر الجدران بالأثواب، فيوجب فى القلوب هيبة للقائل أكثر من هيبة من هو على خشبة معراة (عارية من الزينة).

وكان القاص يقوم في البداية بما يشبه عملية الاندماج المسرحى، عن طريق الصمت الطويل، وتقمص حالة الخاشع الزاهد العابد، وبقدر قناعة الجمهور بصدق اندماج القاص، بقدر نجاحه فى الوصول إلى وجدانهم، ولم يكن الأمر يخلو بالطبع من المتصنعين، اللذين يصف ابن الجوزى أحدهم بأنه "كان إذا صعد المنبر، غطى وجهه وارتعد إلى أن يفرغ القُراء من قراءة القرآن الكريم، ويفعل هذا دائما تصنعا".

وكان المجلس يبدأ بصعود القاص إلى المنبر أو الكرسى، فيبدأ مساعدوه من قراء القرآن الكريم فى تحضير الجمهور، بقراءات يصفها ابن الجوزى بالألحان الخارجة عن الحد المألوف، وقد جعلوها كالغناء، الذى يوقع عليه وبه كأنه حداء أو غناء، وقد أنكر الفقهاء عليهم هذه الطريقة فى القراءة لأنها "تطري وتهيج الطباع" ورغم استنكار الفقهاء لهذه الطريقة فى قراءة القرآن، إلا أن العامة كانوا يستجيبون لها، ويفتتنون بها، وتستثير فيهم عواطفهم الدينية. لقد كانت تلك الطريقة هى الشائعة والسائدة فى مجالس القصاص، ويشترك فيها عدد من القراء فى صوت واحد، وكأنهم "كورس" يمهد الجمهور لسماع ما سيقوله القاص.

فإذا ما انتهى القراء من الترتيل الجماعى، بدأ القاص يظهر، ليدق مجلسه، ويعتليه صعودا ونزولا، موقعا بقدمه. فإذا ما هدأ بدأ بعد حمد الله والدعاء للمؤمنين فى سرد قصصه الدينى بطريقة ادائية مؤثرة، فيرفع صوته حينا، ويخفضه حينا، ويلون أدائه للكلمات حسب معانيها، ثم يندمج أكثر فتحمر عيناه، ويشتد هياجه، وكأنه منذر جيش يقول: "صبحكم أو مساكم" ومع ارتفاع

صوته واشتداد غضبه، يبدأ فى البكاء كمظهر من مظاهر الزهد الذى يملأ قلوب المتعبدين.. وقد يستعين بما يضفى على وجه الاصفرار، أو يستخدم بعض الحيل التى تساعد على البكاء. أو يستخدم سيفا أو عصا لتجسيد ما يقول وتعميق معناه عند المستمعين، وقد يتحرك بعض الحركات التى تناسب ما يلقيه من أسجاع أو أشعار فيطرب الجمهور أى طرب، ويعمد إلى انشاد أشعار الغزل مع تصفيق بيديه وإيقاع برجليه، حتى إذا أراد أن يضحك جمهوره أضحكهم، وإذا أراد أن يبكيهم أبكاهم!

وكان بعض النابغين من هؤلاء القصاص يتنقلون بين المدن والأقاليم الإسلامية يعرضون مواهبهم، كما يفعل الشعراء مقابل منح وهدايا عظيمة، تتراوح كما يقدرها ابن الجوزى بين ألف دينار وسبعة آلاف دينار.. وقد كثر هذا النوع من القصاص فى القرن السادس الهجرى، وهو القرن الذى عاش فيه ابن الجوزى، الذى يقول انهم جعلوا القصص معاشا يستمنحون به الأمراء والظلمة والأخذ من أصحاب المكوس (الضرائب والجمارك) والتكسب فى البلدان.

أما قصاص العامة، فقد كانوا بالطبع يحصلون على رزقهم من جمهورهم، ويقتسم ما يجمعه من جمهوره الفقير مع القراء الذين يساعدونه بتلاوتهم التى تمهد لقصصه.

لقد وقف فقهاء وعلماء القرن السادس، وما بعده، من هذه الظاهرة الإنسانية المأساوية الجماعية، بحق، كما يصفها الدكتور النجار، موقفا لم يتعد الظاهر والخارج، فلم يروا فيها إلا بدعة تسببت فى اختلاط النساء بالرجال، ولم ينفذوا إلى ما وراء

الظاهر إلى الأسباب السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التى جعلت "العامة" من الرجال والنساء ينشدون السلوى فى هذه المجالس، وجعلتهم يمزجون بين تقاليدهم الشعبية وبين القيم الدينية، وبين فنونهم المفتقدة والمتجاهلة، والتى ينظر إليها الخاصة من عل، وبين هذه المجالس القصصية الدينية التى تتيح لهم تنفيسا أسبوعيا أو نصف أسبوعى عن توتراتهم وإحباطاتهم، ولا تزال تلك الظاهرة مستمرة فى عصرنا، بصورة أو أخرى، فى حلقات الذكر الصوفى، أو الزار، أو احتفالات الموالد وهو الأمر الذى لفت أنظار بعض الباحثين فى العلوم الإنسانية لدراسة هذه الظاهرة للوصول إلى أسبابها العميقة، التى لا تجدى فى منعها الأوامر الفقهية، أو الإدارية وحدها!

■ ■ ■

القصص الديني الإسلامي والسياسة

. يقول بعض المؤرخين القدامى أن أول من وضع القصص في الإسلام هم "الحرورية" من الخوارج، بمعنى أنهم أول من بدل القصص الديني، وزاد فيه، لتأييد وجهة نظرهم الدينية والفكرية، وهو موقف مفهوم في ظل الصراع الفكرى والديني المأساوى الذى اندلع بين أنصار الإمام على وأنصار معاوية بن أبى سفيان، فيما عرف في التاريخ الإسلامي بـــ "الفتنة الكبرى" والذى انتهى بسيطرة الأمويين على الحكم، وهزيمة شيعة على، وخروج الحرورية الخوارج على الجميع.

وقد أدرك الخليفة معاوية مبكرا السحر الإعلامي للقصص الديني، وقوة تأثيره في نفوس العامة "فبعث في طلب القصاص، وجمعهم إليه، وأجرى عليهم الرواتب من بيت المال"، ثم أوعز إلى قصاصيه، وقد أصبحوا موظفين في الدولة، في مصر والشام

بالدعاء له بعد صلاة الصبح والعشاء، فكان القصاص يجلس بعد انتهاء الإمام من صلاة الصبح، فيذكر الله ويحمده، ويصلى على نبيه، ثم يدعو للخليفة ولأهله وجنوده بالنصر والتأييد، ويدعو على من يحاربه وعلى الكفار عامة !. وكان بعض القصاص يستخدم يديه فى تأكيد وشرح ما يقصه، ومن هؤلاء سليم بن عز الذى عين كأول قاص بمصر عام ٣٨ هـ.

وبهذا انقسم القصص الدينى الإسلامى إلى قصص يؤلفه الخاصة لأداء وظيفة سياسية وإعلامية لصالح الحكم القائم، وقصص يرويه قصاص العامة للوعظ وللتعليم حسبة لوجه الله واحتسابا. أما قصاص الخاصة فكان يحصل على راتبه الرسمى من بيت المال، ثم ظهر نوع ثالث من القصاص. بعد القرن الهجرى الأول. كالحسن البصرى وأبى عبد الله الجونى، ومطرف بن عبد الله، وصالح المرى. لقد أعاد هؤلاء القصاص الورعون للقصص الدينى وظيفته التذكيرية والتحذيرية، بعد أن هالهم ما أدى إليه الصراع السياسى بين الفرق الإسلامية من مآس وخروج عن الدين الصحيح، وأخذ بهم الخوف من الذنوب الجمعية إلى الرفض المرير للحال الإسلامى العام ويصف الجاحظ فى كتابه "البيان والتبيين" بعض هؤلاء القصاص كصالح المرى بأنه لم يكن قاصا، بل كان نذير قوم، كما يصف مجلسه: بأنه كان إذا أخذ فى القص بدا وكأنه رجل مذعور، يفزعك امره من حزنه وكثرة بكائه، كأنه ثكلى!

وفى العصر العباسى، ومع ظهور الصراع العربى الفارسى، أضاف القصاص الفرس إلى القصص الدينى الإسلامى، الكثير

من الأساطير والخرافات الفارسية والأحاديث الكاذبة. ويذكر الجاحظ براعتهم في القصص، وكيف كانوا يقصون بالعربية والفارسية معا في المجلس الواحد فيفهم عنهم العربي والفارسي، ومع الازدهار الحضاري وما صاحبه من ترف مادي تمتع به الخلفاء والأمراء ومن عاش حولهم من العلماء والأدباء من فرس وعرب في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ومع الثروات الكبيرة التي تدفقت على تجار العاصمة بغداد والحواضر الأخرى، وازدياد شقاء غالبية المسلمين ومعاناتهم في حياتهم اليومية، وما صاحب هذه المعاناة ونتج عنها من هبات وثورات للعامة والفقراء، انعكس كل ذلك على القصص الديني في الطرقات والمساجد والأسواق، وظهر ما عرف بقصص الزهد وأشعار الزهاد والمتنسكين من المتصوفة والزهاد، وقد تبلور هذا التيار الزهدي في البصرة أكبر ميناء تجاري في العالم آنذاك. وقاد هذا التيار الزهدي حجة الإسلام الغزالي، ومالك بن دينار الذي كان شعاره: "كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة!".

وفي القرنين الرابع والخامس الهجريين فتح باب التأليف في القصص الديني الإسلامي على مصراعيه لتدخل منه الإسرائيليات بدون حواجز يصاحبها أخبار وقصص منسوبة للجاهلية وللأمم القديمة وأحاديث وخرافات الشعوب المجاورة، لينسج من هذا كله جنة أخروية تقوم بدور التعويض للبائسين عن شظف حياتهم، وحرمانهم من ضرورات الحياة، جنة يصنعها خيال القصاص لإشباع حرمان جمهورهم الجنسي والمادي، لا علاقة لها بالجنة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وفي

الأحاديث النبوية الصحيحة، ولكنها مستمدة بخيال مبالغ فيه إلى حد الهوس، مما يسمعه ويراه العامة من ترف الأغنياء السفيه، ومتعهم الحسية بالنساء والخمر والطعام، ومن حرمان العامة من كل هذه النعم الدنيوية!.

وكان من الطبيعى أن يستجيب العامة لهذه القصص الخيالية وأن ينشغلوا بها وبقائليها انشغالا عظيما، وهو الأمر الذى استفز الفقهاء والمخلصين من علماء الدين، فشنوا على القصاص وجمهورهم حملات شعواء، وجعلوا الخلفاء يصدرون مراسيم متعددة تنهى عن حضور القصاص، وتولى المحتسبون مراقبة القصاص فى المساجد والأسواق والطرقات باعتبارهم من "أصحاب الصنائع الفاسدة، الذين أفسدوا على الناس حياتهم" ولعل فى تحول موقف الإمام أحمد بن حنبل من القصص والقصاص ما يلقى الضوء على أثر القصاص الجماهيرى فى ذلك الوقت، فقد كان ابن حنبل فى البداية يرى أن الناس فى أمس الحاجة إلى القاص الصدوق، فأصبح يراهم من أكذب الناس، وأن غايتهم هى نهب أموال الناس بالباطل، ويفسر ابن الجوزى موقف الفقهاء من القصاص وذمهم واستعداء الحكام عليهم، بأنهم ينحازون لذكر القصص دون ذكر العلم المفيد، ثم إنهم يخلطون فيما يأتون به من قصص وأحاديث، وأكثر ما يعتمدون عليه فى قصصهم من المحال. ويضرب الدكتور محمد رجب النجار مثلا على ما جاء به القصاص فى ذلك العصر فى موضوعين كانا أثيرين عندهم، هما قصة الإسراء والمعراج، والثانى هو مرويات الشيعة عن آل البيت رضوان الله عليهم. فقد وجد القصاص فى

قصة الإسراء والمعراج مجالا خصبا لخيالاتهم حتى قال الإمام الذهبى فيه: "إنه أصبح أشبه بأحاديث القصاص" وليس مجرد معجزة نبوية محددة الملامح فى القرآن والسنة. أما مرويات الشيعة عن آل البيت، وخاصة فيما يتصل بمقتل الإمام الحسين رضوان الله عليه، فقد لعب خيالهم المشوب بالعاطفة المشبوبة دورا هائلا فى التأليف القصصى الخيالى على حساب الوقائع التاريخية حتى "اختفى الأصل وأضيف إليه من مبالغات لعب الحب المفرط لآل البيت والخيال فيها دورا لا يمكن تصديقه".

■ ■ ■

القصص الدينى بين العامة والخاصة

يصف ابن جبير فى رحلته مجلسا من مجالس ابن الجوزى القصصية الوعظية، بأنه كان أثناء هذه المجالس ينشد من أشعار النسيب، مبرحة التشويق، بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجدا، ويعود موضوعها زهدا، وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام!

أيــن فؤادى أذابه الـــــوجد   واين قلبى، فما صحى بعد؟

يا سعد زدنى جوى بذكرهــم   بالله قل لى، فديت يا سعد!

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه، إلى أن خاف الأفحام، فابتدر القيام، ونزل عن المنبر دهشا عجلا، وقد إطار القلوب وجلا، وترك الناس على أحر من الجمر، يشيعونه بالمدامع الحمر، فمن معلن بالانتحاب، ومن متعفر بالتراب. ويعلق الدكتور النجار على

وصف ابن جبير بقوله: "فما بالنا بقصاص العامة الذين تجاهلهم التاريخ، وكانوا أقرب إلى العامة، لغة ومزايا وفكرا وسلوكا وإبداعا؟" لقد كان قصص العامة نقيضا لقصص الخاصة، فقد كانت قصص الخاصة يؤديها قصاص رسميون هم جزء من الجهاز الإعلامي والفكرى للحكم، وكان جمهورهم هم الفقهاء ورجال الدولة، وكانت قصصهم بالتأكيد لدعم موقف الحكام وتبرير سياستهم، فقد كان الفن القصصي فيها يحتل مكانة هامشية، لأن الهدف ليس الامتاع الفنى ولكن التفسير والتبرير الوعظى لسياسة الحكم، أما قصص العامة فقد اعتبرها الفقهاء من البدع المكروهة لمن يقولها ومن يستمع إليها، وقصاص العامة كان يمارس وظيفته دون إذن من الأمير، فلا هو أمير ولا يقص بأمر من الأمير، ولكنه يحتال بالقصص من أجل العيش، فهو إلى المكدين "المتسولين" أقرب منه إلى القصاص والوعاظ الرسميين، أما جمهوره فهو من عامة الناس دائما.

ولكن قصص العامة هذه، كما تقول الدكتورة وديعة طه النجم هى فى الحق أقرب الصنفين إلى القصص الفنى الذى نعنى بدراسته من الناحية الأدبية، لأنها قد تميزت بأعاجيبها واخيلتها التى ترضى مستوى الخيال الطليق الذى يتمتع به العامة، والذى لا تحده غاية معينة، ولا منطق عقلى فى كثير من الأحيان.. وقد لا نفوت الصواب إذا قلنا أن هذا القصص قصص العامة هو الذى مهد السبيل إلى استقلال القصة شيئا فشيئا عن المجال الدينى أو العلمى، فجعلها تقوم بنفسها، وتنقل (شفاهيا) ثم تدون على أيدى مؤلفين قاموا بتدوينها (كتابة) كالذين سجلوا لنا ألف

ليلة وليلة، أو السير والملاحم الشعبية، التى تمتاز بالخيال الخصب الذى لا يرتبط إلا قليلا، بالواقع، كما أن قصص العامة الدينى هو الذى مهد لظهور فن فريد فى الأدب العربى هو فن المقامة.

فالقصاصون الذين اهتموا بالوعظ الدينى فى بداية الأمر، ما لبثوا أن صاروا ينقلون إلى مجالسهم، القصص الشعبى، فكان بعضهم يثير عواطف الناس بسرد قصص البطولة أو قصص الحب الشائعة على السنة الرواة، ويلبسها بالغاية الوعظية احيانا، وقد نهى ابن الجوزى القصاص عن ذكر قصص الحب والعشق الدنيوى، وقصص سعدى ولبنى فى العشق الصوفى، وقصة موسى والجب، وقصة يوسف وزليخا، على سبيل المثال، كما نهى عن قيام القصاص بالتشخيص والغناء أو تلحين القرآن، أو إيراد النوادر الفكاهية، وغيرها مما كان يلجأ إليه القصاص من فنون السرد التى يرفهون بها عن العامة فى مجالسهم القصصية.

لكن هذه النواهى والأوامر ذهبت إدراج الرياح، فقد كانت مكانة القصاص، وخاصة الموهوبين منهم، عند جمهورهم أقوى وأشد تأثيرا من نواهى الوعاظ والفقهاء الرسميين، ومن مراسيم الحكام، ورقابة المحتسبين، لقد اختلط فى مجالس الوعاظ والمذكرين الشعبيين الدين بالفن، لتصبح بعض هذه المجالس أقرب إلى بعض أنواع العرض المسرحى، فى زماننا وخاصة بعد انصراف الخاصة عن هذه المجالس وتركها لجهال القصاص، على حد تعبير ابن الجوزى، فلم يعد يحضرها إلا "العوام والنساء" أى أنها قد خرجت من رقابة أهل الحكم والفقهاء

والرسميين، ولم تلتزم بتعليماتهم التى تطلب أن يضرب بين الرجال والنساء الذين يحضرون مجالس الوعظ القصصى حجابا، وأن يجعل لهن الواعظ من وعظه نصيبا فيعظهن ويخوفهن من تضييع حق الزوج ومن التفريط فى الصلاة، وينهاهن عن التبرج والخروج، ويذكر لهن ما ورد فى ذلك من أحاديث.. كما حذر الفقهاء أيضا من أن يمضى القصاص أكثر مجلسه فى ذكر العشق والمحبة وانشاد أشعار الغزل التى يحتوى على وصف المعشوق وجماله، وشكوى ألم الفراق، مما يعنى أن هذا كان يحدث ولذلك نهى الفقهاء عنه، كما يعنى أن هذه المجالس القصصية الشعبية قد أصبح لها تقاليدها الدينية والفنية الخاصة، التى أملتها الاحتياجات النفسية والفكرية لعامة الناس، الذين لم يعبأوا بتعالى الوعاظ الرسميين عليهم، ومضوا إلى ما يرغبون ويريدون من الوعظ والقص الدينى، كما يفهمونه، ويعبر ابن الجوزى عن نظرته الخاصة من العلماء والوعاظ الرسميين إلى هذه المجالس الوعظية الشعبية، بقوله: "ومعلوم أن عامة الحاضرين اجلاف، بواطنهم محشوة بالهوى ممتلئة بحب الصور، ولا تخلو المجالس من النساء المستحسنات، ومثل هذا يحرك ما فى النفوس، فإن كان القاص شابا مستحسنا قليل الدين وقع الحديث معه".

لم ينشغل الفقهاء إلا بأمر حضور النساء مع الرجال، ولم ينفذوا إلى ما يعنيه هذا الإقبال الهستيرى على مجالس الوعظ الشعبية، من تنفيس وتعويض عن الإحباط الاقتصادى والسياسى والاجتماعى لقد كانت تلك المجالس تتحول إلى ما يشبه حلقات

الدراويش المتصوفة، أو حفلات الزار فى بعض البلاد العربية، ومن يقرأ وصف ابن الجوزى لهذه المجالس، لابد وان تستوقفه هذه الظاهرة التى تحتاج تحليلا اجتماعيا ونفسيا.. فقد كانت بعض النساء من الحاضرات تصيح كصياح الحامل عند الولادة! وربما رمت ازارها وقامت وقد انتابها الوجد مع استغاثة الرجال ممن يصل إلى حالة الوجد، وعندئذ يحدث الهرج والمرج فى المجلس، كلما زادهم الواعظ من جرعة التخويف وتصوير العقاب، مما يوجب التلف فى قلوب الجمهور.

■ ■ ■

(٥)
الرؤية الشعبية للسيرة النبوية

لم تحفظ لنا كتب السيرة الكثير من التفاصيل عن حياة النبى عليه الصلاة والسلام قبل نزول الوحى، وإن كان القرآن الكريم قد رسم الخطوط العامة لشخصيته النبوية كرسول لله وخاتم للنبيين، بعث بين العرب بلسانهم، لينذرهم ويذكيهم، ولتخرج رسالته من المحيط العربى إلى العالم كافة. يخاطب الله نبيه بقوله: "ألم يجدك يتيما فأوى.. ووجدك ضالا فهدى. ووجدك عائلا فاغنى "وسيضيف كتاب السيرة والمؤرخون والخيال الشعبى الكثير من الملامح والتفاصيل الغنية، التى تجسد تلك العلاقة المقدسة والخاصة بين المسلمين ونبيهم العظيم، وستنتمى بعض هذه الإضافات إلى عالم التاريخ وحقائقه ووقائعه، وسينتمى بعضها الآخر إلى عالم الأدب والموروث الإنسانى الشعبى. وسيختلف الباحثون حول هذه الإضافات القصصية، يحاكمها البعض بمقاييس مناهج المؤرخين الحديثة، وطرق أصحاب الفقه والحديث، التي وإن كانت صالحة لتنظيم حياة المسلمين فى دنياهم ودينهم، إلا أنها غير قادرة على استيعاب أشواق المسلمين، على اختلاف أجيالهم وأزمانهم، ورؤاهم الثقافية، لشخصية النبى العظيم.

لقد حرر كثير من القصاص، والمتصوفة، والشعراء والفنانون الشعبيون، خيالهم الخصب من أوامر ونواهى الفقهاء

والمؤرخين، الملتزمين بالحقائق الجافة، والتفسيرات الملتصقة بالظاهر والمفتقدة لغنى الخيال الإنسانى، وضرورته للحياة الروحية والنفسية للمسلمين، ورغبتهم المشروعة فى التوحد مع شخصية نبيهم من خلال موروثهم الشعبى، وخيالهم الفنى، كرمز للخير الأسنى وللمثل الأعلى.

وتعكس الصياغة الشعبية للسيرة النبوية الكثير من هذه الرؤى والأشواق الروحية والفنية، وقد اكتملت هذه السير النبوية الشعبية فى زمن متأخر ولكنها أصبحت ومنذ ذلك الوقت، جزءا من الموروث الدينى الشعبى للمسلمين، رغم أن بعض الباحثين وعلماء الدين رأوا أنها قد حشيت بقصص ضعيفة السند، لا تصور المعروف من مولد الرسول وحياته فى صورته الصحيحة، كما يقول الدكتور زكى مبارك فى كتابه عن "المدائح النبوية". وقد حدث أن دعا وزير الأوقاف المصرى محمد نجيب الغرابلى أهل العلم إلى وضع صيغة جديدة للمولد، يراعى فيها تحرى الأخبار الصحيحة. وقد قوبلت دعوة وزير الأوقاف هذه، بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية الرسمية، ولكن الدكتور طه حسين تصدى لهذه الآراء، رغم ما فى هذا الموقف من حساسية، فنشر مقالا فى جريدة "الوادى" ١٩٣٤/٨/١ كتب فيه ضمن ما كتب: "وأى بأس على المسلمين فى أن نتحدث إليهم قصص كهذه الأحاديث الحلوة العذاب، فتنبئهم بأن أمم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبى كلها يريد أن يكفله، ولكنها ردت عن هذا، لأن القضاء سبق بأن رضاع النبى سيكون إلى حليمة السعدية؟! وأى بأس على المسلمين فى أى يسمعوا أن

الإنس والجن والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبى، وأن الشجر أورق لمولده، وأن الروض ازدهى لمقدمه، وأن السماء دنت من الأرض حين مس الأرض جسمه الكريم؟ لم تصح الأحاديث بشيء من هذا، ولكن الناس يحبون أن يسمعوا هذا، ويرون فى التحدث به والاستماع إليه تمجيدا للنبى الكريم، لا بأس به ولا جناح فيه. إن من فاحش الخطأ أن يضيق على الجماهير حتى فى القصص البرىء، إن من فساد الذوق ألا يباح للجماعات إلا الحق الذى لا حظ للخيال فيه، إن من سوء العناية بالدين أن يكف الخيال عن تأييد الدين".

وتعلق الدكتورة نبيلة إبراهيم فى دراستها عن "السيرة النبوية بين التاريخ والتراث الشعبى" على رأى عميد الأدب العربى حول علاقة الخيال الشعبى بالدين والتاريخ، بأنه لو كانت الهيئات الدينية والأدبية الرسمية قد استجابت لدعوة وزير الأوقاف وألفت نص للسيرة ملتزم بالتاريخ والواقع ما التزم به الشعب، فالخيال بالنسبة للحياة الشعبية هو جوهر إبداعها الفنى، وهو يوظف على نحو رائع للتعبير عن متاعبها النفسية وطموحاتها الاجتماعية وانبهاراتها الدينية.

إن تلك الأقاصيص التى ترد فى الروايات الشعبية للسيرة النبوية، والتى تجسد رد الفعل التخيلى للجماعة الشعبية لطبيعة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، هى. من وجه آخر، تأكيد ليقين تلك الجماعة الشعبية المسلمة أنه هو من تاقت إليه الأمم، وترقب الجميع من أهل الكتاب مقدمه النبيل. لقد تعددت الروايات التى تنسب إلى أحبار اليهود ورهبان النصارى التنبؤ بقرب بعثة النبى

إلى قومه. ومنها تلك الرواية التى نقلها ابن هشام فى السيرة عن ابن اسحق، والتى تقص قصة ذلك الحبر اليهودى الورع الذى ترك سوريا نازحا إلى يثرب المدينة، وعندما سئل عن سبب تركه لأرض الخصب والغنى إلى أرض الصعاب والجوع؟ أجابهم بأنه يريد أن يكون فى يثرب عندما يصل إليها محمد مهاجرا برسالته!

■ ■ ■

السيرة النبوية والسيرة الشعبية

للتراث الشعبى قوانينه الإبداعية الضاربة فى جذور التاريخ الإنسانى، حيث بدايات الإبداع الجمعى، عندما كانت النغمة والإيقاع والكلمة فنا واحدا يعكس تصورات الجماعة الشعبية عن الكون والحياة والتاريخ، عبر أشكال فنية تنوعت وتطورت من ذلك الأصل القديم، فأصبحت: أسطورة أمثولة حكاية سيرة ملحمية أو أغنية تحمل أصداء من هذا كله على المستويين الفكرى والموسيقى.. وهو ما يشير إليه الدكتور عبد الحميد يونس فى مقدمة كتابه "الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى" بقوله: "ولعل من المفيد ونحن نتحدث عن الأدب الشعبى ودلالته على نفسية الجماعة، أن نستعيد نظرية الاسترجاع التى يقول بها علماء الحياة فالإنسان وهو تاج الخليقة، يحكى فى نشأته ونموه وتدرج حياته، نشأة الحياة كلها على اختلاف صورها

ونموها وتدرجها، والشعب الحى أو الجماعة الحية تختزن جميع الأطوار التى مرت بها خلال العصور والأحقاب، وما من أثر من آثار التراث الشعبى إلا وجدنا فيه رواسب نفسية واغلة فى القدم، تعود إلى عهد العشائر البدائية فى العصر الحجرى وما قبله، وهو إلى جانب الروايات العملية فى الآثار والنقوش، أصدق فى الدلالة على نفسية الشعب من الوثائق والأضابير وروايات الأخباريين وأصحاب الحوليات والتواريخ".

وشخصية النبى محمد عليه الصلاة والسلام أبرز شخصية أساسية فى الآداب الشعبية العربية، فهى البؤرة النورانية المباركة التى يلتقى عندها العديد من فنون الأدب الشعبى، من سيرة، ومدائح وانشادات دينية، إلى أغانى الحجيج والعمل والغزل، إلى الحكايات والقصص. وإذا كان هناك شبه إجماع الآن بين علماء التراث الشعبى العربى، على أن السير الشعبية العربية تكاملت وتم تدوينها فى مصر، بعد تعريب مصر وتمصير عربها، فى القرنين الخامس والسادس الهجريين، الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين.. فإن هذه السيرة الشعبية هى فى جوهرها تسجيل لصورة بطل يجسد المثل الأعلى العربى، حيث يمتزج فيه المأثور التاريخى بالمأثور الشعبى، كما يمتزج فيه الواقع بالحلم والأسطورة، حتى قيل: "أن السيرة الشعبية هى التاريخ ينشد على أبواب الأسطورة ". وتستمد السيرة الشعبية تقاليدها الأولى من "المغازى" وهى الحروب التى خاضها الرسول وأصحابه، والتى شكلت روايتها وتدوينها السير الأولى، بعد أن عرفت الثقافة العربية الإسلامية تدوين مختلف

مجالات المعرفة فى نهاية القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى.

فالسيرة إذن فى تراثنا الرسمى ترتبط بالترجمة المأثورة للنبى (سيرة ابن اسحق التى دونها ابن هشام) باعتباره البطل العربى الأعلى، دينيا وقوميا وعسكريا، والذى تمتد سيرته من حيث المساحة الزمنية إلى ما قبل النبوة، ثم البعثة، ثم الدعوة والغزوات والحروب، ثم النصر، إلى نبوءة الوفاة، والوفاة ذاتها، ثم الامتداد إلى ما بعد الوفاة واستقرار الدعوة الإسلامية " " والسيرة بهذا المعنى باعتبارها أول سيرة فى التراث العربى تستهدف رسم المثال والنموذج القومى (الرسول الأعظم) دينيا وعربيا وعسكريا وأخلاقيا.

لقد استعار الإبداع الشعبى مصطلح "السيرة" بكل دلالاته من السيرة لنبوية، باعتباره وعاء لتسجيل نموذج تاريخى بطولى "يتغنى بسيرة النبى عليه السلام، باعتباره نبى الأنبياء، وبطل الأبطال "وفى هذا الإطار نفهم حرص مؤدى السيرة الشعبية فى بدايات إنشادهم الشعرى، على مدح النبى عليه الصلاة والسلام، والإشادة بصفاته العظيمة وبأهل بيته، ومعجزاته وبطولاته، كمثل بطولى أعلى، ومؤدى السيرة الشعبية يسوق هذا المديح فى مفتتح انشاده، لا بطريقة روتينية يكرر فيها الكلمات والعبارات، ولكن بطريقة مبتكرة ومتجددة كل مرة، وهذه البدايات هى جزء من السرد الشعرى والنثرى فى السيرة، فهو يقيس الأحداث والوقائع والبطولات والمعارك والمواقف الأخلاقية، على مرجعياتها الأساسية، التى يؤمن بها الشاعر المنشد والجمهور

المتلقى معاً، وهى السيرة النبوية.. ولتأكيد هذه المرجعية توجد السيرة الشعبية صلات بين أبطالها وبين النبى عليه الصلاة والسلام، متجاهلة الحقائق التاريخية، فالتاريخ فى الوعى الشعبى الجماعى ليس وقائع صماء منفصلة، لكنه مسيرة متصلة، لا يحكمها التسلسل والتتابع فى الزمان والمكان، ولكن يحكمها اتصال المعانى والدلالات والرسائل التى يريد المبدع الشعبى توصيلها لجمهوره، الذى شاركه عبر احقاب طويلة فى صياغة هذه السير الشعبية. ففى "سيرة عنترة" وهى أقدم السير الشعبية التى وصلتنا، يفسر المؤلف المجهول واقعة تعليق "معلقة عنترة" داخل الكعبة تفسيرا مختلفا عن تفسيرات كتب التاريخ والأدب، ويخبرنا راوى السيرة أنه بعد أن انتزع عنترة الاعتراف ببطولته الجسدية وفروسيته، شارك فى مباراة شعرية لانتزاع الاعتراف به كشاعر، لتكتمل صورته كفارس وشاعر، وهما وجها البطولة، كما كان العرب يفهمونها.. وتجعله السيرة يتحدث إلى الشاعر الجاهلى عروة بن الورد الصعلوك الشهير، بقول عنترة عن نفسه: "من يكون هذا المقال مقاله، وهذا القتال قتاله، ما يصح إلا أن يعلق له قصيدة على جدران البيت الحرام، ويفتخر بها الخاص والعام".

ويكون تعليق قصيدة عنترة على جدران الكعبة أحد علامات ظهور النبى محمد عليه الصلاة والسلام.. وتحكى السيرة أن عنترة وهو فى مجلسة بين الشعراء والفرسان، رأى رجلا يجرى قادما نحوهم، وأخبرهم الرجل أنه قادم من البيت الحرام، وأنه سمع عبد المطلب جد النبى يعظ أهل مكة ويخبرهم أن زمان

لنبى قد أهل لأنه عبد المطلب قد رأى مناما، كأنه واقف
دام "هبل" أشهر أصنام الجاهلية وهو الصنم الأكبر الذى على
لركن اليمانى، وكأنه سأله عن الرجل الروحانى (النبى) متى
يكون ظهوره؟

فقال هبل: إذا أينعت نخلة يثرب، ووقع الجوع والغلاء فى بلاد المغرب، وانشق أيوان كسرى وخرب، وعلق قصيدته فارس بنى عبس الأدهم، وأجل سفك الدماء فى الحرم، وخولت له رقاب الفرسان من العرب والعجم".. وفى "سيرة سيف بن ذى يزن" هو شخصية تاريخية عاشت قبل الإسلام، يصل مؤلفو السيرة الصلة بينه وبين النبى محمد، عن طريق وزيره "يثرب" ولا يخفى ما فى اختيار اسم الوزير من دلالة، فيثرب هى المدينة التى هاجر إليها النبى وأصحابه.. وفى السيرة الهلالية يتصل نسب بطلها الأساسى ابى زيد الهلالى بالنبى عليه الصلاة السلام، من خلال أم أبى زيد "خضرة الشريفة" وفى "سيرة ذات الهمة" نجد أن أبرز صفات أحد أبطالها الأمير الصحصاح أنه "زائر لقبر النبى زين الملاح، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما أظلم الدجى وأنار الصباح".

■ ■ ■

القصص الشعبى والمعجزات النبوية

تعكس قصص المعجزات النبوية التي صاغها الخيال الشعبى مدى تعلق الوجدان الجمعى بالخوارق والمعجزات ومحاولة تفسيرها وتعليلها بما يتكامل مع ما يحمله هذا الوجدان من موروثات قديمة، ويستهدف، هذا الوجدان من رواية قصص المعجزات وتدوينها والاستمتاع بسماعها أو قراءتها، تأكيد المعجزات النبوية، والاستجابة لدوافع أخلاقية واجتماعية من ناحية، والترويج لبعض الفرق الإسلامية سياسيا من ناحية أخرى.

وتسوق الدكتورة نبيلة إبراهيم فى دراستها المهمة عن "السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبى" التى أشرنا إليها، بعض القصص الشعبى الذى يروى لتأكيد هذه الأهداف الوجدانية والأخلاقية، والتى مازالت تروج بين العامة حتى الآن - مثل:

"قصة عامر اليهودى عابد الأصنام" و"قصة اليتيم المظلوم" و"قصة الغزالة والجمل" وكل هذه القصص تباع فى طبعات شعبية فى الاحتفالات الدينية والأسواق الشعبية.

وتحكى قصة عامر اليهودى عابد الأصنام، عن هذا الرجل الذى كان له ابنة أصيبت بالشلل والجذام، وكان يتوسل للأصنام أن تشفيها، وبينما هو عاكف على عبادة صنمه ذات يوم، شاهد نورا ملأ الافاق، ثم كشف الله عن بصيرته فرأى الملائكة عند الكعبة. وقد اصطفت وراء الجبال الساجدة والأرض الهامدة، وسمع مناديا ينادى: قد ولد النبى الهادى، فسأل عن اسمه فأجابه حجر بان اسمه محمد المصطفى، فخرج هو زوجته ليذهبا إليه، فرأى ابنته تقف سليمة معافاة، فسألها أبوها وهو فى ذهول تام عن شفائها فقالت له: أنها رأت نورا ملأ ما بين السماء والأرض، وعم الوجود، فلما رأت شخصا أمامها يسطع النور من وجهه، سألت من هو؟ فقيل لها: أنه سيد ولد عدنان. وسألت عن اسمه، فقيل لها: محمد وأحمد، فسألت عن دينه، فقيل لها، دينه هو الإسلام، وهو قرشى يعبد الواحد القهار، فلما شكت لصاحب الصوت من دائها، قال لها: توسلى لله بجاهه "فقد قال الرب القريب الدانى، أنى قد أودعت الإنسان سرى وبرهانى، فلا أخيب من دعانى" فبسطت يدها ودعت الله، ثم مسحت بيدها على وجهها وجسدها، فاستيقظت من نومها صحيحة البدن.. ورحل الأب والأم والابنة إلى مكة، وطرقوا بيت آمنة بنت وهب أم النبى، وسألوها عن المولود الذى نور الله به الوجود، فقالت لهم: أنى أخاف عليه من اليهود، ولكن الرجل أخبرها أنه هو وعائلته

فارقوا وطنهم محبة فيه، فسمحت لهم برؤيته، وقبلوا قدميه، وسلموا العهد والأمانة، وبعد أن خرجوا عاد عامر ثانية ليرى الرسول، وقبل قدميه ثانية، ثم شهق شهقة وعجل الله بروجه إلى الجنة.

وتعلق الدكتورة نبيلة إبراهيم على هذه القصة الشعبية بقولها: "فهذه القصة مع بساطتها استغلت عناصر كثيرة من السيرة النبوية، وهى تلك العناصر التى تحكى عن معجزات الرسول عليه السلام، فقد استغلت ما روى فى السيرة من إيمان بعض المكابرين والمعاندين المفاجئ بالدعوة، سواء كانوا من العرب أو اليهود، كما استغلت قصة النبوءة التى رآها كسرى وغيره، ثم ذلك الخبر الذى يحكى كيف أن الأحجار كانت تحى النبى عليه السلام قبل أن يهبط عليه الوحى، وتقول له: "السلام عليك يا رسول الله".

أما قصة اليتيم المظلوم، فقد ألفت استلهاما للآية القرآنية "فأما اليتيم فلا تقهر" فهى تحكى أن النبى رأى وهو عائد من إحدى غزواته طفلا صغيرا مسكينا نائما على الأرض وحوله أطفال يلعبون، فايقظه النبى وسأله عن عدم مشاركته الأطفال فى لعبهم ولم يكن الطفل يعرف النبى، ولكنه أجابه بفصاحة شعرية اعجبت النبى فاستزاده منها، ثم عرف بنفسه، وعرض عليه أن يكون جده، ويكون الإمام على أباه، والسيدة فاطمة أمه، والحسن والحسين أخويه ففرح الصبى، وقدمه النبى إلى ابنته، فعاش فى بيتها، وعندما خرج النبى فى إحدى غزواته طلب أن ينضم إليه محاربا، فأخذه معه، وأصيب الصبى فى تلك الغزوة بضربة قاتلة

فغسله الرسول عليه الصلاة والسلام وصلى عليه، ووراءه سبعون ألفا من الملائكة.

وأما قصة الجمل والغزالة فهى من أكثر هذه القصص ترددا على لسان المنشدين الشعبيين، فهى مصاغة شعرا، وتحكى عبر بنائها قصة جمل وغزالة ذهبا للنبى عليه الصلاة والسلام لكى يشكيا له من ظلم الإنسان، ويطلبا منه الانتصار لهما "وإذا كانت هذه القصة فى عمومها تصوير الطبائع الإنسان وغبائه وقلة حيلته فى بعض الأحيان، فإنها هنا لا تؤدى هذا الغرض وحده، بل تؤدى غرضا آخر أهم وهو إثبات معجزة الرسول عليه الصلاة والسلام، فضلا عن الإشادة بأخلاقه السامية التى حرص على نشرها بين المسلمين   وتبدأ القصة بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام، فيقول زجلا:

فــى أول القول مدحك يــا نبى استفتــاح
يــا من تسلم عليك الشمس كــل صباح

ما أحلى مديحك وما أخفه على الــمداح
وأنــــا إن مدحت النبى لم عــلى جناح

وثـــانى القول مدحك يــا نبى مطــلوب
وكم من ضيقة وتفرجها على المكروب

جت الغزالة ولبنها على الثرى مسكوب
ضمنتها يا حبيبى لما أوفت المكتــوب

وتحكى القصة الشعبية قصة غزالة أرادت أن ترضع أطفالها، فطلبت من صيادها أن يفك أسرها لتقوم بالمهمة وتعود إليه فرفض، فضمنها النبى وأوفت بعهدها   ثم ينتقل القاص الشعبى

إلى قصة الجمل فيسردها ليعود إلى ربطها مع قصة الغزالة فى نسيج واحد.

ثم يستمر الشاعر الشعبى فيسرد على لسان الجمل القصة، وكيف كان جملا قويا، ثم إصابة المرض، فاعتنى به صاحبه قليلا، ثم لما تأكد من شدة مرضه أهمله، وقطع عنه زاده، وخاف الجمل أن يذبح فذهب للنبى يستغيث به، ويذهب النبى والصحابة مع الجمل إلى صاحبه، الذى نعرف أنه قاسى القلب فقد اعتدى على جاريته ففقا عينها ولكن عينها تشفى بعد رؤيتها للنبى.

ويرفض صاحب الجمل تصديق قصة نطق الجمل بالشكوى للنبى، ويطلب النبى من الجمل إعادة شكواه، فيفعل ويسلم اليهودى صاحب الجمل، ويتحرر الجمل من الذبح، وبذلك يؤكد القاص الشعبى بث القيم الأخلاقية من خلال المعجزات النبوية، وكما تقول الدكتورة نبيلة إبراهيم فى تعليقها على القصة "وإذا كانت مهمة الدعوة المحمدية هى إعادة النظام إلى الحياة وإلغاء فوضويتها من خلال تطبيق أسس الإسلام العادلة، فقدا انتهت القصة، بتحرير المظلوم، وفك قيد الأسير، وخضوع الظالم للنظام الدينى العادل".

■ ■ ■

(٦)
سيرة النبى.. رؤية غربية

كارين أرمسترونج كاتبة بريطانية وباحثة فى تاريخ الأديان، عاشت فترة من حياتها كراهبة، ولكن الحياة فى الدير كانت أضيق من أن تتسع لرؤيتها الخاصة للأديان، فهى بحكم دراستها المتعمقة فى تاريخ الأديان، وخاصة الأديان التوحيدية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، تؤمن بأنها جميعا تسعى للحب، والعدالة والسعادة للإنسانية، ولكنها على العكس من هذه الرسالة السامية اتخذت منطلقا للكثير من العداوات والصراعات والحروب الدموية.

وكتابها: "محمد، سيرة حياة النبى" الذى صدر بالإنجليزية عام ١٩٩٢، وبالعربية عام ١٩٩٨ بترجمة الدكتورة فاطمة نصر، والدكتور محمد عنانى منشورات "سطور". يقدم رؤيتها للإسلام ولنبيه عليه الصلاة والسلام، متوجهة بخطابها للقارئ الغربى. ولقد صدر كتابها ليواجه الضجة الغربية الشرشة التى انفجرت بعد نشر الكتاب السيئ الصيت "آيات شيطانية" للكاتب البريطانى الهندى سلمان رشدى الذى أيقظ الموروث الغربى الكريه للعداء للإسلام، بما يحمله هذا العداء من عنصرية تضرب بجذورها فى تاريخ قديم، لم يستطع الكثير من المثقفين الغربيين، رغم دعاواهم عن العلمية والموضوعية، أن يتخلصوا من تأثيراته الواعية واللاواعية. وقد جاء كتاب الكاتبة البريطانية

كارين أرمسترونج فى توقيته المناسب، فهى تعرض لحياة بنى الإسلام محمد الذى حرف الكتاب الغربيون اسمه، وافتروا على حياته وعلى تعاليم الدين الذى أرسل به لقرون طويلة، لا تريد أن تنتهى. وهى، الكاتبة، بعرضها الموضوعى لحياة محمد، والذى يأخذ الإطار الثقافى للقارئ الغربى فى الاعتبار، تبين لهذا القارئ أن كراهية الغربيين وعداءهم لنبى الإسلام وللمسلمين، والربط بينهم وبين العنف والهمجية والشهوانية والتخلف "يناقض" ما يدعيه الغرب من عقلانية، ومن تسامح فكرى وعقائدى، وهى بوضعها يدها على هذا التناقض تهدم دفاعات القارئ الغربى، وتصيب زهوه بهويته العقلانية فى مقتل.

وليس فيما تسرده الكاتبة البريطانية عن حياة النبى جديد، بالنسبة للقارئ العربى أو المسلم، فالمصادر الأساسية التى اعتمدت عليها الباحثة هى المصادر التقليدية للسيرة النبوية، كسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، ومغازى الواقدى، وتاريخ الطبرى.. ولكن الجديد فى كتاب الباحثة البريطانية هو قدرتها على استنطاق هذه الأحداث والوقائع القديمة بمعانيها الإنسانية العميقة، وقدرتها - رغم الحرص على الحيادية - على النفاذ إلى جوهر دعوة دينية غريبة عنها وعن موروثها الثقافى والعقيدى، لكن إدراكها لهذه الصعوبات منذ البداية، ساعدها على اختراق الحواجز والعقبات التى تحجب حقيقة الإسلام السامية، وروعة كتابه المقدس، كما ساعدها على قراءة كتب المؤرخين المسلمين القدامى، قراءة واعية ومنصفة فى الوقت ذاته، من خلال وضع هذه المصادر التاريخية الفتية والنابضة بالحيوية،

فى سياقها الصحيح زمانا ومكانا.

فكتاب السيرة المسلمون، لم يكتبوا سيرة نبيهم، كما كتب الكتاب المسيحيون سير قديسيهم بطريقة غير نقدية. أما كتاب السيرة المسلمين فقد تميزوا بثقتهم التى لا حد لها فى الشخصية التى يؤرخون لها، ليخرج القارئ بصورة واقعية مفعمة بالحيوية عن ذلك الإنسان غير العادى، ومن الطبيعى القول بأن هؤلاء المؤرخين لم يكتبوا بنفس الأسلوب الذى يتبعه المؤرخون الغربيون المحدثون. فقد كانوا رجال عصرهم، وهكذا نراهم كثيرا ما يوردون اقصوصات يضفون عليها طابع الإعجاز التى يمكن لنا اليوم تفسيرها تفسيرا مختلفا، لكن هؤلاء المؤرخين نجدهم يعون طبيعة مادتهم المعقدة، وأيضا، يعون الطبيعة المراوغة للحقيقة. لكن المساواة بين البشر - وكما سنرى - سمة ذات جذور عميقة فى الإسلام، وحتى إذا ما قيل أن سلسلة المصادر لا تتفق مع المتطلبات الحديثة للتاريخ، فالمؤرخون فى حالتنا هذه يبذلون جهدهم كى تتساوى أهمية كل رواية للأحداث، وهم إذ يوردون كل الروايات لا يوافقون عليها جميعا، وهذا فى حد ذاته، برهان على أن هؤلاء المؤرخين القدماء، ورغم تبجيلهم الواضح للرسول، كانوا يضمنون سيرهم كل الروايات بكل ما يملكون من أمانة وصدق.

وتقدم الباحثة من خلال سردها لوقائع حياة النبى فى المدينة محاولته إقامة مجتمع عدل وكفاية هو فى جوهره تحقيق للمشيئة الإلهية.. ومن خلال سردها لغزواته ومعاركه الحربية، تقدم الباحثة مفهوما جديدا للجهاد، يختلف جذريا عن ذلك المفهوم

العدائى والمحموم الذى يقدمه الإعلام الغربى، عن جهل وسوء قصد.. فخلافا للمسيح الذى اتسمت دعوته بالمسالمة، خاض نبى الإسلام معارك إيجابية وصراعات في الواقع لردع الظلم ورد العدوان "أى أنه وبلغة اليوم، قدم المثال على الفعل الإيجابى، فحروب الإسلام كانت دفاعية، وردا للعدوان، بالإضافة إلى أنها كانت وسيلة لفرض "السلام الإسلامي" الذى أمكن فى ظله وقف حمامات الدم، وإقامة مجتمع عادل أساسه القيم الرفيعة، إذا فالجهاد هو النضال المستمر ضد الذات، وضد الآخر من أجل تحقيق الإرادة الإلهية والعمل على إسعاد البشرية. كما أنه لم يقتصر على كونه وسيلة أو هدفا له قط، وعلى عكس ذلك، فهو دين الاستمرارية مع الماضى، وعقيدة سلم وتصالح.

وتفسر الباحثة للقارئ الغربى سر غضب وثورة المسلمين على كتاب "آيات شيطانية" وكاتبه، وتأييد الغرب وتبنيه للكاتب والكتاب، فشخصية محمد تجاوزت المسلمين كشخصية تاريخية، لتصبح رمزا لكل ما هو مقدس وغال وعزيز عليهم، وأى امتهان لشخصية النبى، هو امتهان لعقيدة المسلمين وتاريخهم وثقافتهم ووجودهم.. فالنبى محمد يعيش فى وجدان المسلمين، وفى أسلوب تفكيرهم، وفى طريقة حياتهم اليومية، وهو بالنسبة لهم الهوية: الماضى والحاضر والمستقبل، ثم تنهى رسالتها بقولها: "إن محمدا أتى بالإسلام، والإسلام دين سلام ووفاق، وأنه لن يختفى ولن يذوى أبدا، وإن بقاءه فى عنفوانه وقوته هو خير للبشرية، لأنه يدعو، كما دعا محمد، إلى إرساء قواعد الحب والعدل والسلام الإنسانى".

وتسجل الباحثة البريطانية كارين ارمسترونج فى كتابها "سيرة النبى محمد" ظاهرة استمرار الكراهية الغربية القديمة للإسلام، والنظر إلى النبى محمد على أنه عدو، فهذه الكراهية والعداء يواصلان ازدهارهما حسب تعبيرها على جانبى المحيط الأطلسي، ولم يعد هناك ما يمنع الناس من الهجوم على هذا الدين، حتى ولو لم يعرفوا عنه إلا القليل! .

وتحاول الباحثة تفهم أسباب ذلك العداء، وهى ترجعه إلى التحدى الذى واجهه الغرب من الدولة الإسلامية، ومن الفكر الإسلامى، وقد استمر هذا التحدى لقرون.. فعندما نشأت الإمبراطورية الإسلامية، فى القرن السابع الميلادى، وامتدت الفتوحات الإسلامية بسرعة لتشمل العالم المسيحى فى الشرق الأدنى وشمال أفريقيا، وهى المناطق ذات الأهمية القصوى لكنيسة روما، بدأ أبناء الغرب المأخوذون بهذا النجاح السريع والداهم للإسلام يتساءلون: "إذا ما كان الله قد تخلى عن المسيحيين ورضى عن الكفار؟!" وعندما خرجت أوروبا من عصورها القديمة وجدت استمرار توسع الإمبراطورية الإسلامية قائما وكانت أوروبا عاجزة عن التأثير فى تلك الثقافة القوية والدينامية، وكان الفشل هو مآل المشروع الصليبى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، بل إن الأتراك العثمانيين لم يلبثوا أن جاؤوا بالإسلام إلى عتبة دار أوروبا نفسها، وكان من المحال على المسيحيين الغربيين، بسبب هذا الخوف، أن يلتزموا العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية. وفى الوقت الذى كانوا ينسجون فيه خيالاتهم المخيفة عن اليهود، كانوا يرسمون

صورة شائهة للاسلام تعكس بواعث قلقهم الدفينة.

"كان علماء الغرب يهاجمون الإسلام باعتباره عقيدة تجديف في الدين، ويصفون محمدا بأنه المدعى الاكبر، ويتهمونه بأنه أنشأ دينا يقوم على العنف، ويمتشق السيف لفتح العالم. وأصبح اسم محمد بمثابة البعبع الذى يخيف الناس فى اوروبا، وكانت الأمهات يستعملن نفس اللفظة فى تخويف أطفالهن العاصين".

لقد تحولت هذه الرؤية المزيفة والكاذبة للإسلام ونبي الاسلام لتصبح مؤثرا أساسيا فى نظرة الغرب إلى العالم الاسلامى.

وعندما التقى المسلمون بالغرب الاستعمارى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أعجب كثير من المسلمين بالحضارة الغربية الحديثة، وحاولوا تقليدها، لكن الممارسات البشعة للاوروبيين والأمريكيين طوال القرنين الماضيين حولت هذا الإعجاب الإسلامى إلى استياء مرير، وأيقظ هذا الاستياء المبرر من جانب المسلمين الموروث العدائى القديم للغرب تجاه الإسلام والمسلمين.

وبعد أن تستعرض الباحثة بعض الكتب الغربية القليلة التى تروى السيرة النبوية، وتبدى ملاحظاتها النقدية عليها، تقدم للقارئ المنهج الذى ستتبعه، والذى يختلف بعض الشئ عن كتاب السيرة الأخرين من الغربيين، فنقطة انطلاقها أن المصادر التاريخية الإسلامية تجعلنا نعرف الكثير عن النبى أكثر مما نعرف عن مؤسسى الأديان الأخرى، كما أن دراسة حياته يمكن أن تهبنا إدراكا عميقا ومهما لطبيعة التجربة الدينية "فجميع الأديان تمثل حوارا بين حقيقة مطلقة تستعصى على التعبير،

وبين الأحداث الدنيوية، وفترة نبوة محمد تتيح لنا أن نفحص هذا الحوار فحصا دقيقا أوثق مما يتيسر للباحثين فى العادة".

■ ■ ■

وتستعرض الباحثة البريطانية العديد من الأساطير والخرافات التي صنعها المؤلفون الغربيون فى العصور الوسطى ليشوهوا بها صورة نبى الإسلام فى خيال شعوبهم ومن أبرز هذه الأساطير أسطورة "ماهاوند" وهو أحد الأسماء المزيفة التى أطلقوها على النبى العظيم، بداية من القرن الثانى عشر الميلادى، و"ماهاوند" هذا هو عدو الممالك المسيحية، ويوضح الباحث ر. و. ساذرن فى دراسة له عن "صور الإسلام فى الغرب إبان العصور الوسطى" عملية صناعة الأساطير الغربية عن الإسلام بقوله: "لاشك أنهم عندما وضعوا هذه الأساطير والأوهام، كانوا يرون أنها تمثل الصورة الحقيقية، إلى حد ما، للواقع الذى تصفه، ولكنها اتخذت بعد كتابتها طابعا أدبيا وهبها حياتها الخاصة. ولم تتغير كثيرا صورة محمد واتباعه من أبناء الصحراء، على مستوى الشعر الشعبى، من جيل إلى جيل".

وترى الباحثة أن الطابع الخيالى لشخصية "ماهاوند" فى الغرب، زاد من الصعوبة التى يواجهها الناس اليوم، إذا حاولوا النظر إلى شخصية النبى، باعتباره شخصية تاريخية جديرة بالدراسة الجادة.. وتشير إلى نفاق سلمان رشدى وسوء نيته فى اختياره الصورة الخيالية لشخصية "ماهاوند" فى روايته "آيات

شيطانية" لتتطابق على أعلى مستوى مع الأوهام الغربية الراسخة.

وتكشف الباحثة عن الروح الاستعمارية التى سادت بين بعض مفكرى القرن التاسع عشر، فاوحت إليهم بتفوقهم على الأجناس الأخرى من الهمج فى آسيا وأفريقيا، والتى انعكست فى النظرة إلى الإسلام، ويعبر الشاعر الفرنسى "شاتوبريان" عن هذا المثل الصليبى الأعلى بعد أن بهرته حملة نابليون، فكتب يقول: "أن الصليبيين حاولوا نشر المسيحية فى الشرق، وهى أقرب الأديان إلى إذكاء روح الحرية ! ولكنهم اصطدموا فى جهودهم الصليبية بالإسلام، وهو عقيدة معادية للحضارة، فهى تشجع بانتظام على انتشار الجهل والاستبداد والرق" ومن الطريف أن بعض مفكرى العصور الوسطى كانوا يهاجمون محمدا لأنه منح الطبقات الفقيرة سلطات أكثر مما ينبغى، مثل العبيد والنساء، ولذلك أبدت الثورة الفرنسية إعجابها بالإسلام، لا لأنها عرفته أكثر، ولكن لأنه أصبح متوافقا - من وجهة نظرها مع شعاراتها!

ومن الطريف أيضا ربط الصليبيين الجدد فى القرن التاسع عشر بين اليهود والعرب، واعتبارهما معا كما كتب شاتوبريان هذا "مجموعة متدنية من عناصر الطبيعة البشرية" ثم يضيف المزيد من خزعبلاته العنصرية "يشهد المرء دلائل فى كل شىء على أن العنصر السامى، فيما يبدو لنا. عنصر ناقص بسبب بساطته. وإذا كان لى أن أضرب لذلك مثلا، قلت إن مقارنته بالأسرة الهندية الأوروبية تشبه مقارنة رسم بالقلم الرصاص بلوحة زيتية، فهو يفتقر إلى التنوع والثراء والحفول بالحياة،

وهى شروط الكمال".

ويدفع الفرنسيون الآن غاليا، ثمن هذه الأفكار العنصرية للصهيونية العالمية أما عداؤهم للإسلام والعرب فيستمر بلا مقابل!

■ ■ ■

الوحى.. اللقاء بالحقيقة المطلقة

لا تزال الأسرار المقدسة للوحى، والاشرافات العليا للأرواح العظيمة، تأبى على التحليل الجاف القاصر على ما تدركه المناهج البشرية فى بحثها الدائب عن الحقيقة.. ولا تزال الحقيقة ذاتها، ومن هنا عظمتها التى تصل إلى حدود القداسة، ملتبسة وحمالة أوجه، وذات تجليات متعددة، تعطى لأشواق الناس إليها المعنى والأمل.

ومن الحقائق التى تربط الأرض بالسماء والله بالإنسان، والغيب بالواقع، والبشرى بالمقدس: حقيقة الوحى الإلهى كإحدى الحقائق العظمى.

لقد عاش الرسول العظيم - قبل لقائه بالوحى - خبرات روحية وإنسانية عميقة من تلك الخبرات التى تساعد الأفراد الأفذاذ، على الوصول إلى حالة من السمو والشفافية تعلو فوق

خبراتهم العادية، إلى الرؤى والأحلام المحملة بالوعود المضيئة والصادقة كفلق الصبح، إلى الخبرة العظمى واللقاء المقدس مع الوحى الذى رواه النبى صلاة الله وسلامه عليه، ونقلته إلينا كتب السيرة النبوية، والذى بدأ بظهور الروح المقدس إلى جانبه وهو يتعبد فى الجبل، طالبا منه أن يقرأ، وكانت إجابته الأولى: "ما أنا بقارئ".. لست من القلة القارئة فى مكة. ولست من رواة أساطير الأولين، ولست كاهنا يقرأ الطالع. ثم يطوقه جبريل حتى يبلغ منه الجهد، فينطلق لسانه بأول ايات القران الكريم "اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم" ويرتعد الجسد النبيل، ويشعر أن ما حدث فوق الاحتمال فيندفع من مكمنه الجبلى، ليتسلق القمة، وليظهر له جبريل ثانية، وصوته يملأ آفاق السماء، يقول له "يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم أو أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى أفاق السماء، قال: فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى، وما أرجع ورائى" (سيرة ابن هشام).

وتحاول الباحثة البريطانية كارين ارمستروغ فى كتابها "سيرة النبى محمد" أن تقرب بين القارئ الغربى المعاصر، وبين استيعاب ذلك الحضور الساحق للوحى الإلهى إلى النبى، مبينة أن هذا الإحساس الطاغى بالحقيقة المقدسة الذى انتاب محمدا سلام الله عليه وصلواته "قد انسحق على إثر إدراك حضور الرسل والأنبياء فى معظم النواميس، وفى المسيحية، وصفت بأنها رهيبة غامضة ومبهرة، وسميت فى اليهودية بالمقدس (..)

وكل ما خبره هؤلاء الأنبياء هو سمو حقيقة تتواجد خارج نطاق المفاهيم، وتدعوها عقائد التوحيد (الإله) وترجع طبيعة التجربة الرهيبة إلى كونها قد نقلت كلا من أولئك الأنبياء إلى عوالم مجهولة، نائية عن سلوان ما هو طبيعى من الأمور، كل ما فيها صادم، ولكنها أيضا مبهرة وتمارس جاذبية لا تقاوم، ذلك لأنها، وبطريقة ما، تحمل معها ذكر شيء مألوف يرتبط ارتباطا معقدا بأعماق النفس".

لم يكن فى وعى النبى تعاليم دينية سابقة تساعده على فهم ما حدث واستيعابه، لم يكن ثمة غير السيدة خديجة الزوجة الرؤوم، ليلقى بنفسه فى حجرها وهو يرتعد طالبا منها أن تدثره لتحميه مما حدث له، وكانت السيدة العظيمة عند حسن ظن نبيها فى تلك المرة، وفى المرات التالية التى زاره فيها الوحى.

كانت السيدة العظيمة تعرف محمدا كما تعرف نفسها، وكان دفئها الأمومى مساعدا على اجتياز مرحلة الخوف، لتهدأ النفس النبوية إلى ما صارت إليه: "أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق". هكذا تكلمت السيدة خديجة، وعندما ذهبت لابن عمها ورقة بن نوفل العارف بالكتب المقدسة السابقة ليزيدها يقينا، صاح من فوره: "قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له: فليثبت".

وحينما أبصر النبى بعد ذلك فى الكعبة أسرع إليه وقبله على

جبينه.

وتشير الباحثة البريطانية فى تحليلها لحقيقة الوحى، إلى أن كل الأفكار الخلاقة التلقائية موحاه، وتتطلب قفزة إلى الأمام فى عالم الحقيقة غير المختلفة. وإذا نحن نظرنا من تلك الزاوية، فإن الوحى لا يعنى تراجع العقل، لكنه العقل وقد تزايدت سرعته، وتم تكثيف محتوياته. لقد كان محمد قد وصل - قبل الوحى - إلى أعماق المشكلة التى تواجه مجتمع مكة، وجاء القرآن بحل روحى اجتماعى وسياسى، لم يخطر على تفكيرهم من قبل، لكنه لبى أعمق أمانيهم وطموحاتهم.

■ ■ ■

(٧)

قصص الأنبياء..
أو عرائس المجالس

لعل أشهر كتب قصص الأنبياء فى التراث العربى الإسلامى، هو كتاب "عرائس المجالس"، لأبى اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى المعروف بالثعلبى والمتوفى عام ٤٢٧ هـ، وقد كان الثعلبى واعظا غلب عليه القص، كما يقول القدماء.

وينبئنا الثعلبى منذ بداية كتابه أنه سيشرح قصص الأنبياء المذكورة فى القرآن.. ثم يمهد لعمله بذكر بعض وجوه الحكمة فى قصه سبحانه وتعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين، والتى يشير إليها قوله تعالى "وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك". وما قالته الحكماء بأن هذه القصص جاءت لخمسة أمور:

أولاها: إظهار نبوته، ودليل على صدق رسالته، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يختلف إلى معلم، ولم يرحل فى طلب العلم ليعرف أخبار الأولين، إلى أن جاءه الوحى الإلهي، فأخذ يحدث بأخبار ما مضى من القرون، وسير الأنبياء الماضين، والملوك المتقدمين "فمن كان من قومه عاقلا موفقا صدق بما يوحى الله إليه، وإخباره إياه بذلك، فأمن به ومن كان عدوا معاندا حسده وجحده وأنكر ما جاء به وقال كما أخبر الله تعالى "وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا" وقال الله تعالى تكذيبا لهم وتصديقا لنبيه عليه السلام: "قل أنزله الذى يعلم

السر فى السموات والأرض".

والحكمة الثانية من القصص القرآنى عن الأنبياء، هى الأسوة الحسنة، والعبرة بدلالات الأحداث، والقدوة بأخلاق الرسل، والنهى عما وقعت فيه أممهم من خطايا استوجبت العقاب الإلهى، وبذلك تمم الله لنبيه معالى الأخلاق وأدب الأنبياء، ثم أثنى عليه ربه بقوله "وإنك لعلى خلق عظيم" ولذلك وصفته أم المؤمنين عائشة حين سئلت عن خلقه، بقولها رضى الله عنها "كان خلقه القرآن".

ويستخلص المؤلف من أقوال الحكماء عن الحكمة الثالثة فى سرد قصص الأنبياء على النبى أنها إعلاء من شأنه صلوات الله وسلامه عليه وشأن أمته، فإطلاعه على أخبار الأولين وقصص المتقدمين، أعلمه أنه عوفى هو وأمته من كثير مما امتحن به الله الأنبياء والرسل، وخفف عنهم فى الشرائع، ورفع عنهم الاثقال والأغلال التى كانت على الأمم السابقة. وقد أول بعض المفسرين قوله تعالى: "واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة" بأن النعمة الظاهرة هى تخفيف الشرائع والنعمة الباطنة تضعيف الصنائع، قال تعالى: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" وقال تعالى: "وما جعلنا عليكم فى الدين من حرج" وقال تعالى: "يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا".

ويؤكد الثعلبى فى مقدمته لقصص الأنبياء على قيمة السماحة واليسر الإسلاميين اللذين اختص بهما الله المسلمين، مشيرا إلى فخر النبى عليه السلام بأنه بعث بالحنيفية السمحة.

وفى الحكمة الرابعة من إيراد القرآن الكريم لقصص الأنبياء

يلمس المؤلف نقلا عن الصوفى المعروف الشبلى، اختلاف مستوى التلقى لهذه القصص بين العامة والخاصة، حيث "اشتغل العام بذكر القصص (أى بسردها وروايتها والإضافة إليها) واشتغل الخاص بالاعتبار بالقصص".

والاعتبار بالقصص يومئ إلى التأمل فى الأنبياء وثوابهم، وفى أعدائهم وجاحدى رسالاتهم وعقابهم، وتحذير القرآن الكريم، فى غير موضع، عن صنع الأعداء ومواقفهم، والحث على الاقتداء بالأنبياء والرسل. يقول الله تعالى: "لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين" ويقول: "لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب وهدى وموعظة للمتقين" ونحوها من الآيات.

والحكمة الخامسة فيما قصه الله على نبيه من قصص الأنبياء والرسل الماضين، هى إحياء ذكراهم وآثارهم "ليكون المحسن منهم فى إبقاء ذكره، مثبتا له تعجيل جزائه فى الدنيا، حتى يبقى ذكره وآثاره الحسنة إلى يوم القيامة، كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام فى إبقاء الثناء الحسن، فقال: "واجعل لى لسان صدق فى الآخرين" والناس أحاديث. ويقال ما مات ميت والذكر يحييه وانشد الدريدى:

وإنما المرء حديث بعده.. فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقد صنف الثعلبى كتابه "عرائس المجالس" على نسق كتب المؤرخين القدامى. فبدأ بصفة خلق الأرض، وكيفيتها، وحدودها ومسافاتها، وطبقاتها وسكانها. ثم ذكر الأيام التى خلق الله فيها الأرض، وأسماءها وألقابها. وهو يسند إلى وهب بن منبه، باعتباره أشهر رواة أخبار الأولين، أن أسماء الأرض السبعة

هى: الأديم – البساط الثقيل البطيح– المتثاقلة الماسكة الثرى. وأما أسماء الأرض المذكورة فى القرآن فهى سبعة أيضا: سماها الله: فراشا، فقال تعالى: "الذى جعل لكم الأرض فراشا" وسماها: قرارا، فقال: "أم من جعل الأرض قرارا" وسماها: رتقا، لقوله: "أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما" وهى بساط، "والله جعل لكم الأرض بساطا" وهى مهاد "ألم نجعل الأرض مهادا" وسماها، ذات الصدع، "والأرض ذات الصدع" ويعنى به النبات، وسماها كفاتا "ألم نجعل الأرض كفاتا".

وكما يستعين صاحب "عرائس المجالس بالموروث القديم، والإشارات القرآنية، يستعين بمعتقدات العرب قبل الإسلام عن الأرض، الذين كانوا يرون أنها "الأم التى منها الخلق، فهى أولى بأولادها أن يردوا إليها" وقد عبر الشاعر الجاهلى أمية بن أبى الصلت عن هذا المعنى شعرا بقوله:

والأرض معقلنا وكانت أمنا.. فيها مقابرنا، وفيها نولد!

وقد امتدت هذه الرؤية فى العصر الإسلامى، فقد سئل يحيى بن معاذ الرازى ان ابن آدم يدرى أن الدنيا ليست بدار قرار، فلم يطمئن إليها؟ فقال: لأنه منها خلق فهى أمه، وفيها نشأ فهى عشه، ومنها رزق فهى عيشه، وإليها يعود كفاته، وهى ممر الصالحين إلى الجنة.

■ ■ ■

قصة خلق الأرض والإنسان

يتابع الثعلبى فى كتابه المهم عن قصص الأنبياء، المسمى بـ "عرائس المجالس" قصة خلق الكون والإنسان، مستفيدا بطريقة العهد القديم الذى يبدأ بسفر التكوين، ولكنه لا يكتفى بإشارات وروايات العهد القديم، بل يحشد فى هذا الباب معظم ما وصله من مرويات وأخبار شفاهية أو مدونة ليحفظ لنا ثروة كبيرة من الحكايات والأساطير التى حاول من خلالها العقل الإنسانى فى تلك المرحلة التاريخية تفسير ظواهر الوجود ومعجزة الخلق البشرى.

ويقرأ الثعلبى دلالات كلمة "الأرض" فى القرآن الكريم ليربطها بمعانيها التى فهمها المفسرون والمؤرخون القدامى.. ثمة سبع دلالات لكلمة الأرض كما وردت فى القرآن الكريم.. فهى: إشارة إلى أرض مكة فى الآية "أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها" وهى إشارة إلى أرض المدينة، فى الآيات: "أو لم تكن

أرض الله واسعة فتهاجروا فيها" و"أن أرضى واسعة" و"وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها" وهى إشارة إلى أرض الشام، فى قوله تعالى: "ادخلوا الأرض المقدسة" وقوله تعالى: "ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين" وهى أرض مصر، فى الآية "وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض" وقوله تعالى "قال اجعلنى على خزائن الأرض أنى حفيظ عليم" "ولن ابرح الأرض" و"أن فرعون علا فى الأرض" "ويستخلفكم فى الأرض" وكلها إشارات إلى أرض مصر.. ويستخدم القرآن الكريم كلمة الأرض بمعنى أرض المشرق، "أن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض" كان العرب يعتقدون أن أرض يأجوج تقع فى أقصى الشرق، وفى الرحلة الشهيرة التى كلف بها الخليفة العباسى الرحالة ابن فضلان طلب منه استطلاع بلاد يأجوج ومأجوج ضمن رحلته.

ثم يستخدم القرآن الكريم لفظ الأرض بمعنى عموم الأرض فى الآيات: "وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها" و"وما من دابة فى الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم"، ويفسره الثعلبى بأن هذه المخلوقات أمم مثلنا فى التصوير والهيئة، كما أنها مسخرة مثلنا لعمارة الأرض، ثم فى قوله تعالى: "ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام" بمعنى تحول أشجار كل الأرض إلى أقلام.. وسابع دلالة للفظ الأرض فى القرآن هو ما يشير إلى الجنة وأرضها فى قوله تعالى: "ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون" وقوله تعالى: "وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم

أجر العاملين".

وبعد أن يتتبع الثعلبى قصة خلق السموات موردا الموروث الدينى القديم، ومحاولا التوفيق بين هذا الموروث وبين ما ورد فى القرآن الكريم عن السموات وخلقهن، يصل إلى قصة خلق أبى البشر آدم، أخذا برواية العهد القديم الثانية التى وصلته عن طريق تراث الإسرائيليات، ومحاولا تفسير قصة الخلق والخروج من الجنة في ضوء هذا الموروث، لكن ما يلفت النظر هنا، أنه يورد كل الروايات التى وصلته ولا ينحاز إلى أى منها، وبذلك حفظ لنا الكثير من الحكايات والأخبار المقدمة عن قصة الخلق.

وفى صفة "خلق حواء عليها السلام" ينقل عن المفسرين الذين سبقوه، والذين يبدو أنهم أخذوا بالرواية الثانية فى سفر التكوين عن خلق حواء بعد خلق آدم ومن ضلعه، يقولون: "لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشى فيها وحشيا، لم يكن له من يجالسه ويؤانسه، فألقى الله تعالى عليه النوم فنام، فأخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر يقال له القصيرى، فخلق منه حواء دون أن يشعر آدم بذلك ولا وجد له ألما، ولو أولم (تألم) من ذلك لما عطف رجل على امرأة، ثم ألبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع الزينة وأجلسها عند رأسه، فقالت الملائكة لآدم يمتحنون علمه: ما هذه يا آدم ؟.. قال: امرأة ! قالوا: وما اسمها ؟ قال: حواء.. قالوا: صدقت، ولم سميت حواء بذلك؟ قال: لأنها خلقت من شيء حى، قالوا: ولماذا خلقها الله تعالى ؟ قال: لتسكن إلى وأسكن إليها.

وبعد أن تتبع الثعلبى قصة خلق حواء كما جاءت فى كتب

المفسرين يتتبع قصة محنة الخروج من الجنة كما ذكرها أهل التاريخ على حد تعبيره.. وهو يفعل في هذه القصة مثلما فعل من قبل بايراد كل الروايات والأحادث والأشعار التي وصلت عن هذه القصة، ومما يورد في هذا المقام الرأى الذى يرى أن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخله فيها، وذلك لقوله تعالى: "أني جاعل فى الأرض خليفة" ولم يقل: فى الجنة. وهناك من يرى أن الجنة هى الرحم الذى سنرد إليه بعد التكفير عن الخطيئة فى الأرض، أو بعد أن يتخلص البشر ممن لا يستحقون الولاية والحياة فى الحظيرة المقدسة.

وينسب أهل الأخبار إلى آدم أنه أول من نسج الصوف، وإلى حواء أنها أول من غزلته، ليتخذا منه ثوبين يقياهما شرد البرد، ويربط المؤلف بين حرفة غزل ونسج الصوف وبين التأمل والتفكير، والتفكير يورث الحكمة، والحكمة تجرى فى الجوف مجرى الدم، فمن كثر تفكره قل طمعه، ومن قل تفكره كثر طمعه، وعظم بدنه، وقسا قلبه، والقلب القاسى بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار.

وينسب إلى وهب بن منبه أن الله قد أوحي إلى آدم بعد أن كفر عن خطيئته وتاب عليه، أن يجمع له العلم كله فى أربع كلمات.. واحدة لله تعالى، وواحدة لآدم، وواحدة بين الله وآدم، وواحدة بين آدم وبين الناس. فأما التى لله، لا يشرك به شيئا. وأما التى لآدم فإن الله يجزيه بعمله كل ما يحتاج إليه. وأما التى بينه وبين الله، فمنه الدعاء ومن الله الاستجابة. وأما التى بينه وبين الناس، فإن يرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ومن الطريف هنا تلك الرواية التى تنسب إلى آدم أول من قال الشعر وبالعربية، عندما علم بقتل ابنه قابيل لأخيه هابيل، وهى جريمة القتل الأولى التى تغيرت من حولها الأطعمة، واغبرت الأرض، فقال شعرا:

تغيرت البلاد ومن عليها.. فوجه الأرض مغبر قبيح.. إلخ!!

ويورد المؤلف ما قاله ابن عباس عن هذا الأمر، "من قال أن آدم قال الشعر فقذ كذب على الله ورسوله".

▪ ▪ ▪

(٨)

قصة أبى البشر آدم
بين التوراة والقرآن

.. ترى الدكتورة نبيلة إبراهيم فى دراستها عن "السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبى" أن الإسلام قد غير من مفهوم العربى للزمن، فلم يعد الزمن عند العربى المسلم زمنا حسيا نسبيا فقط، كما كان عند أسلافه قبل الإسلام، بل أصبح الزمن إلى جانب حسيته ونسبيته كونيا وسرمديا أيضا مرتبطا بالبعث والحساب على ما فعله الإنسان فى دنياه.

"وهذا أول تغيير أدخله الإسلام على مفهوم العربى لوجوده فى الحياة. وهو مفهوم كفيل بأن يزيل الإحساس بالقلق حيث أنه لم يوجد فيها إلا ليموت. ثم أكد الإسلام هذا المفهوم بتوضيحه لمسؤولية الإنسان فى الأرض، فهو لم يخلق إلا من أجل السعى لحياة أفضل، ولا يتحقق هذا إلا من خلال أعمال عقله فى اختيار العمل الصالح ونبذ العمل الطالح، وبهذا يكون الإنسان مسؤولا عن النتائج، بقدر ما سيكون مسؤولا عن المقدمات. كما أنه سيحاسب على أن ما يفعله يكون وسيلة للبناء وليس معولا لهدم. ذلك أن الحياة بوصفها نظاما كليا لا يمكن أن تستقيم إلا إذا رجحت كفة الخير على الشر، فإذا حدث عكس هذا واستشرى الشر بين قوم أبادهم الله وأحل محلهم قوما آخرين، كما حدث لعاد وثمود وغيرهم".

وتفسر الباحثة انطلاقا من هذا المفهوم قصة أبى البشر آدم

فى نصها القرآنى، فالقصة القرآنية عن خروج أدم من الجنة ونزوله إلى الأرض، تختلف فى صياغتها ودلالتها عن نفس القصة، كما وردت فى التوراة، على الرغم من التشابه بين القصتين فى خطوطهما العريضة، فالقصة القرآنية تبدأ قبل خلق آدم: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة، قالوا: اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال أنى أعلم ما لا تعلمون".. وهذا يعنى صراحة النص على أن آدم خلق ليعيش فى الأرض لا فى السماء، ولم يكن ما حدث فى الجنة إلا برهان على اختلاف آدم عن الملائكة المبرئين من العيوب، فهو معرض للغواية، وعليه وحده تقع مسؤولية التفرقة بين الخير والشر وبناء على ذلك فإن قصة آدم فى القرآن لم تهدف إلى إثبات خطيئة آدم، كما أقرتها التوراة والإنجيل، بل إن ما فعله آدم يشير إلى طبيعة الآدمى ساكن الأرض".

ثم تؤكد الآيات القرآنية بعد ذلك حكمة الخالق فى صنعة آدم على هذا النحو، وذلك فى قوله تعالى "وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين" وليست أسماء المسميات مجرد أسماء، ولكنه الإدراك الذى يميز بين الشئ وغيره "بل لنقل أنه العلاقة بين الإنسان والموضوع. وهنا يتمثل جوهر طبيعة الإنسان.. وجوهر قيمة وجوده فى الأرض. ويتحدد هذا الجوهر بأن للإنسان فكر يتحرك فى كل ما حوله، وهذا الفكر ينطلق مرة من الداخل إلى الخارج، ومرة أخرى من الخارج إلى الداخل".

وتنتهى قصة آدم كما وردت فى القرآن الكريم بوعيه لتبعاته وتحمله لمسؤولياته، وهما أساس تصالحه مع ربه، ورضاء الله عنه "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، أنه هو التواب الرحيم" ثم تحسم القضية بقوله تعالى "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينا أن يحملنها، واشفقن منها، وحملها الإنسان، أنه كان ظلوما جهولا" لقد حمل الإنسان مسؤولياته الجسام على عاتقه ليعيش بها ولها على الأرض، وليصبح مسؤولا عن صنع حياته وحياة الجماعة الإنسانية التى يعيش بين ظهرانيها. هذه الحياة التى هى فى نهاية المطاف مجرد حلقة من حلقات التاريخ الإنسانى، الذى أصبح الإنسان مسؤولا عنه بالتبعية "كل هذه المفهومات أصبحت واضحة فى عقل المسلم، بل أنه وسعها وصاغها على شكل مسائل فلسفية أو كلامية خاض فيها علماء الكلام من الأشاعرة والمعتزلة، بعد قيام الدولة العباسية، وبعد أن انتقل الجو الأدبى والفلسفى، كلية إلى البصرة ثم إلى بغداد".

ولذلك لم يكن غريبا أن يبدأ تدوين السيرة النبوية فى بغداد فقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصور من محمد بن اسحق أن يؤلف لابنه المهدى (الخليفة فيما بعد) كتابا يذكر فيه كتاب البشر منذ خلق الله آدم عليه السلام، إلى يومنا هذا، فذهب فصنف هذا الكتاب، فقال الخليفة: لقد طولته يا ابن أسحق أذهب فاختصره، فذهب فاختصره، فهو هذا الكتاب المختصر (يعنى سيرة ابن هشام التى وصلتنا) وألقى الكتاب الكبير فى خزانة أمير المؤمنين. لقد كان مقصد الخليفة المنصور أن يضع بين يدى ابنه

المهدى الذى سيرث الخلافة من بعده، كتابا يلم بأحداث الماضى ليكون ذخيرة تعينه على صنع الحاضر والمستقبل. وكان التاريخ فى وعى الخليفة العباسى، هو أساسا تاريخ العرب فى ماضيهم وحاضرهم، وكان الإسلام، حيث تقع أخبار النبى صلى الله عليه وسلم وحكمه وتعليماته وحروبه فى بؤرة هذا التاريخ المطلوب تدوينه، فمن أجل نشر دعوة الإسلام، تمت الفتوحات ونشأت الدولة ونمت وكبرت مسؤولياتها ومسؤوليات المسؤولين عنها من الخلفاء.. لقد أصبح التاريخ العربى فى وعى المسلمين قيمة حضارية تؤكد وجود الذات الحاضرة، وتساعدها على دحض الفكرة السائدة عند العرب قبل الإسلام والتى ترى الحياة مجرد مراحل عبور، معلومة البداية والنهاية. تبدأ بالميلاد وتنتهى بالموت. لم تعد الحياة كما عبر عنها الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم، فى معلقته الشهيرة:

وكأس قد شربت ببعلبك وأخرى قد شربت بقاصرينا

وإنا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا

بل أصبحت الحياة الإنسانية موصولة بالله، وخاضعة لمعيار الحق والخير الجماعى، أصبحت سلسلة متصلة الحلقات تبدأ بالماضى لتستمر فى الحاضر. وأصبح للإنسان وجود تاريخي.

■ ■ ■

وهناك تناقض واضح بين قصتى خلق الإنسان الأول اللتين وردتا فى الاصحاحين، الأول والثانى من سفر التكوين فى العهد القديم من الكتاب المقدس (التوراة).. ففى الاصحاح الأول ورد

أن الله خلق حتى اليوم السادس من بدء الخليقة كل الكائنات الحية التى تعيش على الأرض أو فى الماء أو فى الهواء ثم خلق أخيرا آدم وحواء كليهما، على صورته. أى أن الإنسان قد خلق بعد أن خلقت الكائنات كلها، وأن الإنسان منذ البداية قد انقسم إلى ذكر وانثى، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة الأصل الإلهى.

أما الإصحاح الثانى من سفر التكوين فترد فيه قصة مختلفة، إذ نقرأ فيه أن الله خلق الإنسان أولا، ثم خلق صنوف الحيوانات الدنيا بعد ذلك، أما حواء فقد خلقها بعد ذلك، وشكلها من ضلع انتزعه من آدم أثناء نومه.. ومن هنا يبدو أن النظام الذى خلقت الكائنات على أساسه معكوس فى القصتين، ففى القصة الأولى تبدأ بخلق الكائنات الحية الأدنى من الإنسان وتنتهى بخلق آدم وحواء معا، وفى الثانية يخلق آدم وحده حيث يقول الإصحاح الثانى: "وجعل الرب الإله آدم ترابا من الأرض، ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسا حية". ثم أراد الله أن يخفف من وحشة آدم فى الجنة، فخلق الطيور والحيوانات، التى نظر إليها آدم وسماها بأسمائها، ولكنه كان لا يزال غير راض عن هذه الرفقة، فخلق له الله حواء من جزء من جسمه لتكون زوجا له.

ويفسر عالم الانثروبولوجيا الشهير جيمس فريزر فى كتابه "الفلكلور فى العهد القديم" التناقض الواضح بين قصتى الخلق، بأن كتاب التوراة قد استمداهما من مصدرين مختلفين، ثم جمعوا بين القصتين فى كتاب واحد (سفر التكوين) دون أن يوائموا بينهما. وتبدو القصة الأولى مستمدة من الأصل الكهنوتى الذى

كتبه رجال الكهنوت اليهودى أثناء السبى البابلى، أو بعده، بينما تبدو قصة الخلق الثانية مستمدة من الأصل اليهودى الذى كتب قبل السبى البابلى بمئات السنين، وتحمل القصة الثانية قدرا من التشاؤم، كما تحمل نظرة دونية للمرأة، إذ تعزو إليها "محنة الجنس البشرى وأحزانه. التى سببه سلوكها المتسم بالحماقة الساذجة. وشهواتها التى أطلقت لها العنان".. وفكرة عودة أصل الجنس البشرى إلى التراب، قديمة عند العبرانيين، إذ نجد أن كلمة "أدمة" فى اللغة العبرية، وهى الصيغة المؤنثة لكلمة آدم، معناها الأرض، وفى الأدب البابلى القديم أيضا كان الناس يعتقدون بخلق الإنسان من طين، وكذلك الفراعنة والاغريق. وقد انتقلت هذه الفكرة إلى تلك الشعوب عن طريق اسلافهم البدائيين.

وتصور القصة التوراتية طرد آدم وحواء من الجنة، وكأنها خوفا من مناقشتها له فى معرفة الخير والشر، وقبل أن يكتسبا أيضا صفة الخلود، إذا ما أكلا من شجرة الحياة المحرمة عليهما. "وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا، ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل على الأرض التى أخذ منها".

وتقارن الدكتور نبيلة إبراهيم فى مقدمتها لترجمة لكتاب فريزر المشار إليه سابقا. بين ما روته التوراة وما رواه القرآن، لإلقاء مزيد من الضوء على مدى ما أعترض القصص الدينى فى التوراة من تحريف. قال تعالى فى سورة البقرة: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا

تقربا هذه الشجرة فتكونا من الهالكين، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين"، كما قال الله تعالى في سورة طه: "فوسوس إليه الشيطان، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى".

تقدم الآيات القرآنية الخطوط العريضة لقصة آدم وحواء منذ أن خلقا فى الجنة إلى أن طردا منها، ليعيشا هما ونسلهما على الأرض حياة غير حياة التحريم، أو هى بتعبير آخر اختبار لطبيعة الجنس البشرى، تلك الطبيعة التى لازمت الإنسان منذ بدء الخليقة حتى اليوم، وهى التى تتمثل فى ضعفه أمام قوة الإغراء المادى. ولما كان التجريد من أخص خصائص القرآن الكريم. لذلك فإن قصة آدم وحواء فى القرآن تختلف اختلافا جوهريا عن قصتهما فى سفر التكوين من العهد القديم (التوراة) ليس فى طريقة السرد القصصى وحدها، وإنما أيضا فى الهدف والغاية من ايراد القصة.

فحسب القرآن الكريم كانت عمارة آدم وحواء للأرض مقدرة قبلا، كما كان عصيان آدم مقدرا من قبل وتصبح القصة الدينية. عندئذ. تأكيدا للطبيعة الإنسانية، وجوانب ضعف الإنسان التى جعلته هدفا لإغراء الشيطان.

وقد أراد بعض مفسرى القرآن الكريم إضفاء المزيد من التفصيلات على القصة القرآنية التجريدية الطابع، فتركوا لخيالهم القصصى مستعينين بالموروث القصصى لأهل الكتاب مما

عرف بـــ "الإسرائيليات" تصوير كيفية خلق الخالق لآدم، والطريقة التى أحضر بها طين الأرض وطبيعة الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها، وإن كان هذا لم يمنع وجود مفسرين آخرين، وقفوا موقفا نقديا أمام هذه الروايات والتفصيلات المضافة، مثلما ذكر ابن جرير الطبرى أمام آراء المفسرين الذين وصفوا الشجرة المحرمة، فقال: "ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين. لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن أو فى السنة الصحيحة. فأنى يأتى ذلك من أتى، وقد قيل كانت شجرة البر، وقيل كانت شجرة العنب، وقيل كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها".

■ ■ ■

(٩)

التصورات العربية القديمة لقصة الخلق

كان الشعر فيما قبل الإسلام هو الوسيلة الأساسية للتعبير عن المعرفة، وعن الذات العربية الجمعية فى المرحلة الشفاهية، وقد كانت كلمة "شعر" تعنى أيضا "المعرفة والدراية".. وكانت الجماعة العربية تعتقد أن الشعر ينبع من المنطقة التى تفصل بين البشر وبين القوى الغيبية غير المدركة!

ورغم أهمية الشعر فى حياة العرب قبل الإسلام، فإنهم بالتأكيد لم يكونوا يتحدثون شعرا طول الوقت، فقد كانوا فى أحوالهم المعيشية يتحدثون نثرا. لكن النثر فى التراث الشفاهى لعرب ما قبل الإسلام قد ضاع بما حواه من أخبار وقصص وأنساب، وما سجله من أحداث وحروب قبلية وعادات وتقاليد وشرائع، أهملها جامعو التراث فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، مركزين عملهم على تدوين الشعر البدوى الوثنى باعتباره أرشيفا لحياة عرب ما قبل الإسلام، وحتى ذلك الشعر، كان أغلبه قد هلك مع من هلك من أصحابه القدامى، قبل مائتى عام من تدوينه، وهو الأمر الذى أشار إليه واحد من أهم المراجع عن تلك المرحلة، وأعنى كتاب "الأصنام" لهشام الكلبى، الذى يقرر أنه لم يحفظ من أشعار العرب غير شعر المرحلة القريبة من الإسلام.

وقد كان إدراك عرب شمال شبه الجزيرة لحدث الولادة وانعكاساته فى معتقداتهم يوازى إدراك سكان المناطق الحضارية

لحدث خلق الله للعالم، وهو الأمر الذى تعبر عنه مصطلحات القرابة: - الرحم ذو الرحم = الأخ من نفس الرحم صلات الرحم الحبل.

ويبرز فى الشعر البدوى القديم "الجد الأول للقبيلة" كرمز لبداية الوجود البيولوجى والاجتماعى بشكل عام. ولا يبدو واضحا فى ذلك الشعر وجود آخر سابق لهذا الوجود، ولا أساطير أو بقايا أساطير عن نشأة الكون، أو عن صورة الإنسان الأول قبل ما جاء فى التوراة والإنجيل عن آدم أبى البشر.

وأقدم البقايا الأسطورية العربية التى تصور نشأة البشر تعود إلى عصر الوحدة اللغوية والثقافية القديمة، وهو العصر الذى أصبحت فيه لغة موجودة مفهومة لكل العرب.. والنشأة البشرية فى بقايا تلك الأساطير تعود إلى ثلاثة أشكال أساسية: الأرض بما عليها من جبال ووديان وصخور وجنادل وكثير من القبائل القديمة تنسب نفسها لهذا الأصل: بنو صخر بنو جندل إلخ.. أما شكل النشأة الثانى فينتسب إلى النبات: بنو شجرة بنو حنظلة إلخ.. وينتمى الشكل الثالث إلى الحيوان والطير: بنو أسد بنو نسر إلخ.

وتؤدى الكلمات:" صخرة حجر غبرة شجرة نسر، وغيرها من ألقاب الانتماءات وظيفة أسماء المانحين الأوائل لهذه التسميات، ومدلولها الحقيقى فى السياق العام للتصورات الأسطورية عن أصل الإنسان التى انتشرت فى آسيا الغربية وشبه جزيرة العرب. وتعود جذورها الدلالية إلى الأساطير القديمة، التى تضمنت روايات عن ظهور الناس الأولين. وهكذا

توجد علاقة محددة بين الألقاب الانتمائية: بنو صخر بنو حجر، وبين عبادة الأحجار التى انتشرت فى شبه الجزيرة العربية فى مرحلة ما قبل الإسلام، متمازجة مع عبادة الأجداد لدى قبائل عديدة. ويشير إلى ذلك ما يسوقه هشام الكلبى (نهاية القرن الثامن بداية التاسع) فى روايته عن أن العقائد الوثنية القديمة فى شبه جزيرة العرب نشأت من خلال إجلال الأجداد المؤسسين للنسل، الذين جعلوا الأحجار رمزا لهم. وهذه الأحجار التى ترمز إلى الأجداد قد تحولت إلى إلهة وموضوعات للعبادة ( ) وقد أظهر علم الأساطير المقارن أن مصدر إجلال وتقديس الأحجار والصخور يعود إلى التصور القديم جدا عن نشوء الإنسان الأول من الحجر. فقد تجلى هذا، التصور على الخصوص، فى الأساطير الخيتية وأساطير اليونانيين القدماء. وقد حفظت أصداء الأساطير عن نشوء الإنسان من الصخر والحجر فى أسفار الأنبياء فى الكتاب المقدس أيضا.

وهذا التصور يعود كما يبدو إلى أقدم الطبقات من أساطير النشوء الإنسانى ونشوء القبيلة عند الساميين الرحل الرعاة الذين سكنوا الهضاب والروابى الصخرية. ويشير القرآن الكريم والكتاب المقدس إلى خلق آدم من تراب، والكلمة التى تشير إلى التراب فى الكتاب المقدس هى كلمة عفر" التى تعنى الغبار الأرضى، وهى فى اللغة الأكادية السامية هى الأخرى بنفس المعنى دون أن ترتبط بخلق الإنسان، وهى بنفس المعنى فى الآرامية والحبشية. [وكلها فروع من المجموعة العروبية السامية] الأمر الذى يشير إلى معرفة عرب ما قبل الإسلام

للتصور القائل بخلق الإنسان من التراب، والذى عرفته التوراة والإنجيل. وقد كان العرب المجاورين لبيزنطة المسيحية يسمون المسيحيين بـ "بنو غبرة" مثلما ورد فى معلقة طرفة بن العبد لأن المسيحيين ينتسبون إلى آدم أبى البشر، بينما ينتسب البدو سكان المضارب المشرعة إلى إنسان آخر. ويفسر بعض الباحثين الاختلاف بين الأسطورة التى تعود بخلق الإنسان الأول من الطين، وتلك التى تعود بخلقه إلى غبار الأرض، إلى كونهما تعبيران عن حالتين من التقاليد الأسطورية "هاتان الروايتان متشابهتان من حيث المضمون، ولكنها يختلفان فى مظهر المادة التى استخدمتها الآلهة لخلق الإنسان: فهى طين فى الحالة الأولى، وهى غبار الأرض الرملى فى الحالة الثانية، وهذه الاختلافات فى جوهر المادة الأولى للخلق إنما تعود، كما يبدو، إلى اختلاف التربة فى أماكن سكن مبدعى هاتين الروايتين. وبالفعل، ففى السهول المليئة بالأنهار فى بلاد ما بين الرافدين، حيث ظهرت أسطورة خلق الإنسان من الطين، نجد أن الطين هو ما تتميز به التربة هناك، وهو المادة التى يستخدمها البناؤون والفخاريون. وفى نفس الوقت نجد أن معتنقى هذه الأسطورة من اليهود قد اعتادوا على التربة الصلدة فى البرارى والإنجاد التى يغطيها الغبار الرملى الجاف = العفار الغبرة التراب. وهذه المادة غدت مادة لخلق الناس من خلال التعديل السومرى الأكادى للموروث الملحمى الوارد فى رواية الأسفار المقدسة، ومن ثم فى الآداب الدينية، اليهودية والمسيحية، وفى الفلكلور".

وهناك أشارتان فى شعر ما قبل الإسلام إلى الانتماء لـ "عرق

الثرى". الإشارة الأولى فى شعر امرئ القيس، حيث يقول:

إلى عرق الثرى وشجت عروقى.. وهذا الموت يسلبنى شبابى
ونفسى سوف يسلبنى وجرمـــى.. فيلحقنى وشيكا بالتــــراب

والإشارة الثانية فى شعر الجاهلى متمم بن نويرة، يقول:

فعددت آبائى إلى عرق الثرى.. فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا

وتختفى عبارة "عرق الثرى" طويلا لتظهر ثانية فى شعر الأموى الفرزدق فى قوله:

أنا ابن الجبال الشم فى عدد الحصى وعرق الثرى عرقى فمن ذا يحاسبه!

وقد فسر شراح الشعر المتأثرين بالإسرائيليات "عرق الثرى" كإشارة استعارية عن النبى إسماعيل جد العرب، بينما فهمها آخرون كرمز لآدم أبى البشر جميعا.

على أن دلالة الاستعارة "عرق الثرى" أوسع من هذا المعنى، والأغلب أن الاستعارة ذاتها ظهرت على أساس تداعيات أخرى، لا يدخل فيها، بشكل خاص، دافع الخلق المتعمد للإنسان، الذى هو أساس فى الروايات السومرية والأكادية وروايات الكتاب المقدس.

وأهم هذه التداعيات كانت متعلقة بمعنى كلمة "الثرى" التى تعنى: التربة الرطبة المبتلة، التربة ما تحت الطبقة الأرضية المروية بالمياه الجوفية، غور الأرض، التربة الباطنية وهى تعود إلى أقدم التصورات عن التربة التى تخصب بالرطوبة، باعتبارها بيئة تولد كل شئ وأم أصلية لكل شئ حى بما فيه ذلك الإنسان نفسه وهو المعنى الذى أشار إليه الشاعر الجاهلى أمية

بن أبى الصلت المتوفى حوالى ٦٣٠ ميلادية فى شعره:

والأرض معقلنا، وكانت أمنا   فيها مقابرنا وفيها نولد

وقوله:

منها خلقنا، وكانت آمنا خلقت   ونحن أبناؤها لو أننا شكر

ثم جاءت قصة الخلق فى القرآن الكريم لتنهى التصورات القبلية البدائية عن أصل الإنسان والمعتمد على الأنساب المحفوظة فى الذاكرة فى شكل منمنمات لا نهاية لها، ليتحول بالوعى العربى إلى الزمن التاريخى الذى يوحد ماضى الجنس البشرى، ووحدة الله خالق البشر والحياة، محدثا تغيرا جذريا فى تدوين تاريخ الإنسانية.

■ ■ ■

[الاقتباسات من "تطور الوعى التاريخى عند العرب" بقلم غريازانيفتش. فى دراسات فى تاريخ الثقافة العربية. القرون ٥/١٥. دار التقدم موسكو].

(١٠)

الخيال الشعبى وقصص الأنبياء

شغل الوجدان الشعبى العربى بقصص الأنبياء، ولم تشبع روايات المؤرخين والإخباريين حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلى هذه الروايات والقصص التى حفظتها الكتب التاريخية والدينية، متأثرا بالسيرة النبوية، فقد بدأت السيرة كما نعرف بقصص إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، كما بدأت بعض كتب التاريخ كالطبرى بقصة أبى البشر آدم وصولا إلى النبى محمد عليهما السلام، الأمر الذى دفع الوجدان الجمعى إلى الاهتمام بقصص الأنبياء وخاصة أولئك الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم.

ولا تزال المكتبات الشعبية فى بعض الدول العربية، تعيد طبع هذه القصص فى كتيبات صغيرة ورخيصة الثمن، لتباع فى أسواق القرى والإحياء الشعبية، ومن هذه القصص "قصة سيدنا إبراهيم" وفى هذه القصة كما فى غيرها من قصص الأنبياء يستلهم المؤلف الشعبى السيرة النبوية والقرآن الكريم، مستفيدا بهما فى البناء الفنى والسرد القصصى لسيرة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام فهو يورد بعض تفاصيل الحياة الخاصة لسيدنا إبراهيم كزواجه، وأسفاره، وعلاقته بابنائه، ليربط بينها وبين رسالته الدينية، وليخلق تكاملا فى القصة يصل بدايتها بنهايتها كما يستغل القاص الشعبى المجهول موضوع "الإسراء" المرتبط

بالسيرة النبوية، فى سرد بعض أحداث قصة إبراهيم، حيث تحكى السيرة النبوية نقلا عن ابن أسحق أن النبى إبراهيم عندما أراد زيارة هاجر زوجته وابنه إسماعيل، فى مكة، حمله البراق من الشام إليهما "فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله فى الشام".. وتورد سيرة ابن هشام حديثا مرفوعا إلى السيدة عائشة رضى الله عنها، تقول فيه: "كان الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا ما اسمعه يقول: أن الله لم يقبض نبيا حتى يخبره".. ويستفيد مؤلف قصة إبراهيم الشعبية بهذا الحديث، فيدير حوارا بين النبى إبراهيم وملك الموت الذى جاءه متنكرا، والذى لم يقبض روحه إلا بعد أن طلب منه إبراهيم ذلك كما يربط المؤلف الشعبى للقصة بين ما ورد فى القرآن الكريم وبين سرد أحداثها، فهى تصف النبى إبراهيم بأنه النبى الذى تجرى ألسنة الخلق كلهم بتصديقه وتفضيله وتبجيله فى كل أمة، مستوحية الآية القرآنية التى يدعو فيها إبراهيم ربه بان يجعل له لسان صدق فى الآخرين.. وهو النبى إبراهيم المبتلى بانواع البلا، والمشهود له بالوفا، استلهاما لقوله تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن" وقوله تعالى: "وإبراهيم الذى وفى" وتصفه القصة بـــ "القانت" وبـــ "أول من أقام المناسك" وأول من ضحى، وأول من ألقى فى النار، وأول من أحيا الله له الموتى، وأول من هاجر لله، كما تصفه القصة الشعبية بـــ "الحليم، المنيب، والأواب" وهى كلها صفات مستمدة من الآيات القرآنية الكريمة: "إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين" "وأرنا مناسكنا" و"رب أرنا كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن

قلبى" وقوله تعالى: "إن إبراهيم لأواه حليم" وقد أضاف مؤلف السيرة الإبراهيمية المجهول إلى ما استمده من السيرة النبوية والقرآن الكريم بعض روايات الخيال الشعبى، ليضع من هذا كله إطارا قصصيا متكاملا، يسرد من خلاله قصة سيدنا إبراهيم، بما يلتقي ومعتقدات جمهوره، واذواقهم الفنية، مستخدما العديد من العناصر الفنية فى تجسيد الأحداث ورسم صور الشخصيات، كما يفعل أى قاص محترف، فهو يستعين، مرات بالأحداث التاريخية التى وردت فى كتب المؤرخين وكتاب السيرة القدامى، ويؤكدها بالآيات القرآنية التى تشير إلى قصة إبراهيم وهو يلجأ إلى التعليل الخيالى المستند على الموروث الشعبى العربى والسامى، فى شرح إشارات القرآن الكريم القصصية، فعندما يقول القرآن: "وفديناه بذبح عظيم" يفسر القاص وصف عظيم، بأنه كان كبشا يرعى فى الجنة أربعين خريفا، وهو الكبش الذى قربه هابيل بن آدم عليهما السلام إلى الله، وقتله أخوه قابيل من أجله، ولذلك سمى عظيما.. ثم يعلل القاص الشعبى يومى "التروية وعرفة" فى شعائر الحج بقوله "ثم رأى إبراهيم عليه السلام فى منامه قائلا يقول له: يا إبراهيم أن الله يأمرك بذبح ولدك، وكان ليلة التروية. فلما أصبح تروى فى نفسه، أمن الله هذا المنام أم من الشيطان؟ فمن ثم سمى بيوم التروية. فلما أمسى رأى المنام ثانية، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله، فمن ثم سمى بيوم عرفة" ثم يصعد القاص الشعبى الموقف الذى يتهيأ فيه إبراهيم لذبح ابنه إسماعيل، حيث يطلب إسماعيل من ابيه أن يكبه على وجهه (أى أن يجعل وجهه للأرض) حتى لا ينظر إلى وجهه، وهو يذبحه فيرحمه، وتحول رقة الأب على ابنه بينه وبين تنفيذ أمر الله.

وتنتهى قصة سيدنا إبراهيم الشعبية بموته، ويرسم مؤلفها لقاء سيدنا إبراهيم مع ملك الموت، هكذا: "لما أراد الله سبحانه وتعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام، أرسل ملكا فى صفة شيخ هرم.. فبينما هو يطعم الناس، إذ هو شيخ كبير يمشى فى الخلوة، فيعرض إليه بحمار فركبه.. فلما رآه أتاه قدم إليه الطعام، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه، فيدخلها مرة فى عينه ومرة فى أذنه ( ) وكان إبراهيم عليه السلام قد سأل الموت. فقال إبراهيم للشيخ حين رأى حاله: ما بالك يا شيخ تصنع فوجد عمره يزيد على عمر إبراهيم بسنتين فقال له إبراهيم: إنما بينى وبينك سنتان، فإذا بلغت عمرك صرت مثلك، اللهم اقبضنى قبل ذلك اليوم، فقام الشيخ فقبض روحه عليه السلام" ولا يخفى ما فى هذه الفقرة من خبرة إنسانية، تكره أن يوصلها كبر السن إلى تحلل الأعضاء، ووهن الجسم وفقدانه لوظائفه.

كما تشير قصة سيدنا إبراهيم الشعبية فى نهايتها إلى اتباعه للشريعة الإسلامية، فتقول: "إن أول من صلى صلاة الصبح هو آدم عليه السلام حين اهبط من الجنة إلى الأرض ودخل الليل. ولم يكن يعرف الليل قبل ذلك، فخاف خوفا شديدا من الظلمة، فلما انشق الفجر صلى ركعتين شكرا لله تعالى، الركعة الأولى للنجاة من ظلمة الليل، والثانية شكرا لرجوع ضوء النهار، فكان ذلك سببا لكونهما ركعتين وفرضت علينا. وأول من صلى الظهر إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح ولده. صلى أربعا: الأولى شكرا لذهاب غم الولد، والثانية شكرا لنزول الفداء، والثالثة شكرا لرضاء الله تعالى حين مضرة الذبح، وكان ذلك منه تطوعا، وقد فرض علينا".

موسى وأنبياء التوراة

ظلت اليهودية الديانة السماوية الأولى لأكثر من ألف عام، لأن أنبياء بنى إسرائيل الذين أتوا من بعد موسى عليه السلام حرصوا على تقويم الشريعة الموسوية مما كانت تتعرض له من تحريف. ويصف ابن الأثير فى كتابه "الكامل" هذه العملية بتجديد التوراة.. وصورة موسى كنبى تجعله فى مستوى متفرد عن الأنبياء الآخرين من بنى إسرائيل، ويفسر علماء التاريخ القديم اسم موسى بمعنى "المولود" ولكن رواة التراث العربى يفسرونه على أنه يعنى: "ماء وشجر" إشارة إلى المكان الذى عثر عليه فيه وهو طفل رضيع، على النيل، وترسم الكتب المقدسة صورة موسى الشاب، بأنه قوى قوة عضلية فائقة مكنته من قتل رجل بضربة واحدة، كما أنه استطاع أن يرفع وحده الصخرة الهائلة التى كانت موضوعة على فوهة البئر لكى تسقى ابنتا النبى

شعيب إبلهما، الأمر الذى لفت نظر البنتين إلى قوته ومروءته، كما دفع النبى شعيب إلى إهدائه عصاته متأكدا من قدرته على حملها، وكان شعيب لا يستطيع حملها.. ويرسم ابن الأثير، بما يورده من أخبار، صورة النبى موسى كما تصورها أصحاب التراث العربى ورواة سير الأولين، فهو ذو مروءة وخلق عظيم، فعندما دعته ابنة شعيب للقاء ابيها، وأجاب دعوتها، جعلها تسير خلفه لا أمامه، قائلا لها: "أننا أهل بيت لا ننظر فى أعقاب النساء" وعندما وصل بيت شعيب، وقدم له الطعام، رفض أن يأكل، قائلا لصاحب البيت: "أننا من أهل بيت لا نأخذ على اليسير من عمل الآخرة، الدنيا بأسرها" ثم هو يستجيب للطعام احتراما لعادات شعيب وأهله فى إطعام الضيف عندما عرف ذلك.

وعلى عادة الأخباريين القدامى يورد ابن الأثير أخبارا أخرى ترسم ملامح تختلف قليلا عن الملامح السابقة الى كان يتحلى بها النبى موسى.

أما عن نبوته فتتميز بالتقريب الذى حباه الله به، والذى يتمثل فى توجيه كلام الله إليه مباشرة فضلا عن وساطة الملائكة. وهكذا فعندما لم يقدح زناد موسى رأى نارا من نور الله ممتدة من السماء إلى شجرة عظيمة من العوسج، وعندما اقترب من الشجرة الخضراء المتوهجة باللهب، استأخرت عنه ففزع ورجع، وهنا نودى: أن بورك فى النار ومن حولها يا موسى "أنى أنا الله رب العالمين" وعندما هدأ وثاب إلى عقله نودى: "اخلع نعليك أنك بالوادى المقدس طوى" وعاد كليم الله موسى والناس لا

يقدرون على النظر إليه، وفى ذلك قيل أنه بقى أربعين يوما ما رآه أحد فيها إلا مات، كما قيل ما رآه أحد الاعمى، حتى أنه جعل على وجهه حريرة أربعين يوما لم يكشفها لما تغشاه من النور، أو أنه جعل على وجهه ورأسه برنسا أربعين يوما لئلا يرى أحد جهه".

ويتتبع الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى دراسته: "الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام" موضوعه التقنع وإخفاء نور الوجه فى التراث العربى والإنسانى، فـــ "الأسود العنسى" متبنى اليمن كان معتما متخمرا أبدا، ولذلك لقب بذى الخمار (القناع) ويقول عنه ابن الأثير أنه كان مشعبذا يرى قومه الاعاجيب.. كما كان الثائر الخرسانى هاشم المروى (١٥٩ ١٦١هـــ) الذى ثار على الخليفة المهدى العباسى فى بلاد ما وراء النهرين، والذى كان يؤمن بالتناسخ والحلول، وكان يزعم أن روح الله قد تقمصته، وقد كان يلقب بـــ "المقنع" لأنه كان يظهر باتباعه مرتديا قناعا منسوجا من الخيوط الذهبية لكى يبهر انظارهم، وكان يخبرهم أنه يلبس هذا القناع لكى لا يبهرهم بإشراق الأنوار الإلهية التى لن يطيقوا النظر إليها مباشرة.. ولكن خصوم المقنع من العباسيين فسروا لبسه للقناع بأنه كان أعور فكان يخفى عاهته بالقناع الذهبى.. وكانت نهايته بعد يأسه من شدة حصار عسكر الخليفة العباسى، أن القى بنفسه فى النار واتبعه أهله وخاصة مريديه، وماتوا جميعا محترقين، وهم على قناعة بأنهم سيصعدون مع "المقنع" إلى السماء!

كما يقال أن أهل الإسكندرية ظلوا يضعون قطعا من الحرير

الأسود على وجوههم لمدة سبعين سنة بعد أن بناها الإسكندر الأكبر، خشية على أبصارهم من أن يخطفها بياض الرخام الناصع!

■ ■ ■

المعجزات الموسوية

هناك معجزات عديدة ينسبها رواة التراث لموسى عليه السلام، منها ما ورد فى التوراة والقرآن الكريم ومنها ما تناقله رواة الأخبار والقصص ضمن ما تناقلوه من أخبار الأولين مثل النار التى رآها موسى تنبعث من شجرة العوسج الخضراء، وكف مطر الطوفان، وكشف الجراد، والقمل الذى أهلك الزرع، وكف الدم الذى تحولت إليه مياه الفراعنة طيلة سبعة أيام، ومسخ أموالهم حجارة.. إلخ. وقد كان إدخال موسى يده فى جيبه، وإخراجها بيضاء من غير سوء لها نور فى بياض الثلج، وهى الكرامة التى وردت فى القرآن، كما كانت عصاه التى ورد ذكرها فى القرآن أيضا، ذات كرامات عديدة.

ويصف ابن كثير عصا موسى بأنها كانت ذات شعبتين وفى رأسها محجن، ولم تكن وظيفتها بالنسبة له مجرد أن يتوكأ عليها

ويهش بها على غنمه، ويحمل عليها زاده وماءه.. بل كانت تضئ له فى الليلة الظلماء، كما كان إذا اشتهى فاكهة من الفواكه، غرسها فى الأرض، فتخرج لها أغصان تحمل الفاكهة المشتهاة وعندما التقى موسى بالسحرة، تحولت عصاه بأمر ربه، إلى حية تسعى، لقفت ما صنعه السحرة من أعاجيب، وهو الأمر الذى جعل رئيس السحرة يؤمن بما جاء به موسى ويخر ساجدا هو ومن معه من السحرة أجمعين.

وهى عصا موسى التى ضرب بها البحر الأحمر، ففلقته، فكان كل فرق كالطود العظيم، وفتح فيه اثنى عشر طريقا لكل سبط من قومه طريق، ثم التطم البحر على فرعون ومن معه فأغرقهم.. وهى العصا التى ضرب بها المحجن فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين.

كما ينسب إلى النبى موسى معجزة إحياء الموتى، وكأنه المسيح عيسى بن مريم، ويقول ابن الأثير فى روايته أن رجلا قتل رجلا وادعى أن غيره هو القاتل، وعندما احتكموا إلى موسى ليفصل فى القضية أمر بذبح بقرة صفراء فاقع لونها، وأمر بضرب القتيل بلسانها، فبعث حيا وأرشد عن قاتله ثم مات، وقيل أن الهدف من ذبح البقرة الصفراء فاقعة الاصفرار، كان إحراق لحمها وجلدها، ليستخدم رماد الحريق فى تطهير الماء الذى يستخدم الطهارة.

ويروى المؤرخون القدماء آخر كرامات النبى موسى، والخاصة بفتحه مدينة أريحا على الجبارين من الكعنانيين، فبعد أن قاتل خصومه طوال النهار، وقاربت الشمس الغروب، وخاف

موسى أن يدركهم الليل فينصرون عليه دعا ربه أن يحبس عليهم الشمس فحبسها عليهم حتى استأصلهم، ودخل موسى المدينة فأقام بها إلى ما شاء الله أن يقيم، ثم قبضه الله إليه، ولا يعلم أحد من الخلق مكان قبره، كما يقول ابن الأثير ويشير الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى دراسته السابق الإشارة إليها، أن مؤلفى "أنشودة رولان" وهى الأنشودة الملحمية الشعبية الفرنسية والتى يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر الميلاد، ترد بها قصة حبس الشمس، وإن كان مؤلفو الأنشودة يوظفونها كما هو معروف لتمجيد غزو الملك الفرنسي شارلمان لشمال الأندلس، فترة حكم المسلمين لها (١٦١ هـ ٧٧٨) فبعد أن فاجا المسلمون جيش شارلمان، فى جبال البرانس، بعد عودته من مدينة سرقسطة الإسلامية، تمكن شارلمان من الثأر لمقتل الكونت رولان. ولما كانت الشمس قد قاربت على الغروب كما تقول الملحمة الشعبية الفرنسية، فإن شارلمان المقدس، الذى نشر المسيحية بين قبائل الجرمان البدائية الأوروبية، دعا الله أن يوقف الشمس فوق الأفق، فاستجاب الله لدعاء الملك القديس، فلم تغب الشمس إلا بعد أن حقق النصر الكامل على خصومه المسلمين.

"هذا ولا بأس أن تكون كرامة شارلمان القديس صدى لكرامة موسى التى تنسبها رواية أخرى إلى النبى يوشع، الذى خالف موسى بعد إن كان من أعوانه حيث يشير ابن الأثير وابن خلدون إلى أن يوشع هو الذى أدركه المساء ليلة السبت فدعا الله أن يرد الشمس، فرد فهزم يوشع الجبارين ودخل مدينتهم، وجمع غنائمهم ليأخذها كقربان.

ومهما يكن من أمر فإن النظر إلى المعجزات والكرامات التى تنسب إلى الأنبياء السابقين على دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين، تظل جزءا حيا من التراث الإنسانى المقدس، الذى يرى فى النبوة تكريما إلهيا يرتبط بالوحى والإلهام الذى يهبه الله لمن يختاره من البشر.

■ ■ ■

تعرضت بعض كتب التاريخ والتراث لما سمى فى العهد القديم (التوراة) بالوصايا العشر، فقد ذكر ابن الأثير ثلاثة منها فقط، كما أورد ابن عبدربه فى "العقد الفريد" بعض ما أوحى به إلى موسى، ومنها قوله تعالى: "يا موسى أنت عبدى، وأنا الملك الديان، لا تستذل الفقير، ولا تغبط الغنى بشئ يسير، وكن عند ذكرى خاشعا".

وقد أورد اليعقوبى، فى تاريخه، وهو سابق على ابن الأثير، الوصايا كاملة وهى:

- أنى أنا الرب.. لا يكون لك إله آخر دونى.
- نقمى على مبغضى، ونعمى لمحبى.
- لا تحلف باسم الرب كذبا.
- أذكر يوم السبت لتطهره.. سبت الرب إلهك لا تعمل فيه شيئا من الأعمال.
- أكرم أباك وأمك لتطول أيامك فى الأرض.
- لا تقتل.

- لا تزن. ويضيف ابن الأثير فى روايته (من زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت).

- لا تسرق، ويضيف ابن الأثير: (من سرق قطعناه).

- لا تشهد على صاحبك شهادة كاذبة.

- لا تشته بيت صاحبك، ولا زوجة صاحبك، ولا عبده ولا امته ولا حماره ولا ثوره، ولا شيئا من مال صاحبك.

"هنا ولا بأس، من الإشارة إلى ما أوصى به النبى محمد صلى الله عليه وسلم لأمته حيث ينسب إليه قوله "أوصانى ربى بتسع، وأنا أوصيكم بها: (أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية، والعدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمنى، وأعطى من حرمنى، وأصل من قطعنى، وأن يكون صمتى فكرا، ونطقى ذكرا، ونظرى عبرا) وهكذا تستمر التقاليد الحنفية الإبراهيمة حية بفضل سلسلة الأنبياء حتى موسى، قبل أن تعمل الدعوة المحمدية على تجديدها وإحيائها بشكل نهائى فى الإسلام، فكما كان لموسى الكليم وصاياه العشر، كان لمحمد الأمين وصاياه التسع، كما أراد العرف الإسلامى".

(د. سعد زغلول عبد الحميد مرجع سابق).

هذا ويرى كثير من الباحثين وعلماء الآثار الغربيين أن الديانة المصرية القديمة التى عرفت البعث والحساب، والعقوبة والثواب، طرحت – عبر التعاليم الاخناتونية فكرة التوحيد، كما أن أرض مصر عرفت العديد من الأنبياء أصحاب الرسالات كإبراهيم الذى أقام بها زمنا وتزوج منها هاجر أم ولده إسماعيل

أبى العرب، ويوسف الذى خدم فى الإدارة المصرية ومات فيها ودفن على ضفاف نيلها، وأصبح تابوته، فيما بعد، شعار بنى "إسرائيل" فى حروبهم، ومن هنا يرى هؤلاء الباحثون أن الديانة المصرية كان لها تأثيرها، فى تلك الرسالات التى تلتها، كما يرى البعض أن موسى يمكن أن يكون أميرا مصريا!

■ ■ ■

هوامش ومراجع

١- التراث القصصى فى الأدب العربى الدكتور محمد رجب النجار.

٢- سيرة إبن هشام.

٣- الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام الدكتور سعد زغلول عبد الحميد. فى: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر- المجلد الثانى عشر ١٩٨٢.

٤- دراسات فى العصر الجاهلى تأليف أحمد أبو الفضل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية القاهرة ١٩٦٧.

٥- القرآن والتاريخ الدكتور عبد العزيز كامل فى: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر المجلد الثانى عشر ١٩٨٢.

٦- تطور الوعي التاريخى عند العرب، القرون ٦-٨ - بقلم غرياز نيفتش. فى [دراسات فى تاريخ الثقافة العربية القرون ٥-١٥- دار التقدم موسكو ١٩٨٩].

٧- السيرة النبوية بين التاريخ والتراث الشعبى الدكتورة نبيلة إبراهيم. فى: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر المجلد الثانى ١٩٨٢.

٨- محمد.. سيرة حياة نبى تأليف كارين آرمسترونج

ترجمة. د. فاطمة نصر والدكتور محمد عنانى
مطبوعات سطور. القاهرة ١٩٩٨.

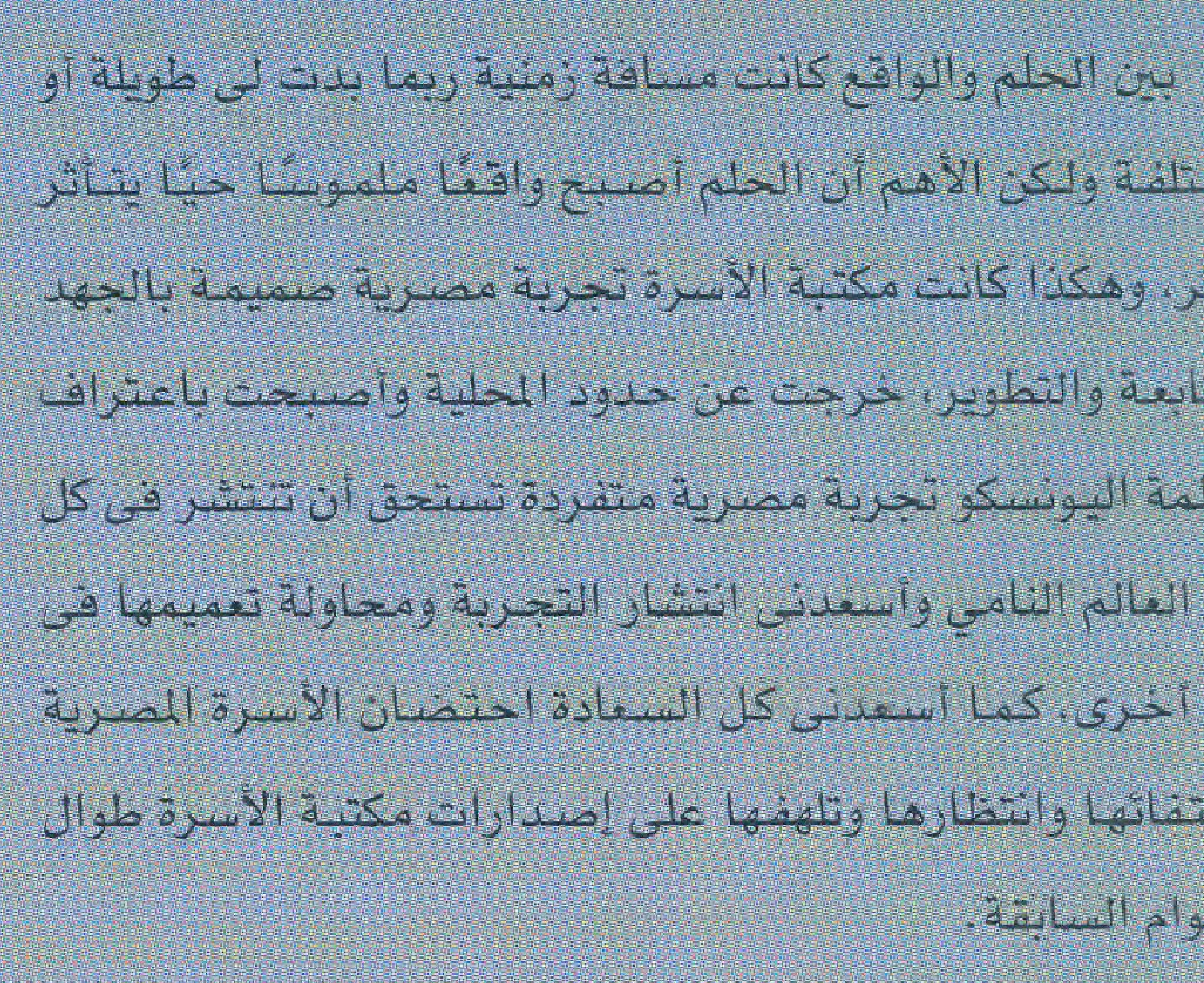
٩- عرائس المجالس تأليف أبى أسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى، المعروف بالثعلبى. القاهرة.

١٠- الفلكور فى العهد القديم تأليف سير جيمس فريزر
ترجمة د. نبيلة إبراهيم القاهرة.

- هذه بعض المراجع إضافة إلى ما ورد من إشارات لمراجع أخرى فى متن المقالات، فمادة موضوع القصص الدينى شديدة الغنى فى المكتبة العربية قديما وحديثا.

رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٣٣٥٧
الترقيم الدولى: 977-01-7413-0





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو
تلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر
ر. وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد
ابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف
لمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل
العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى
أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية
تفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال
وام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله
فه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات
رة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة
رة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد
لمشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية،
د الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى
بة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى. تضيف
ا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على
الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل
المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرشًا